النصيحة السنية
في معرفة آداب كسوة الخلوتية

ويليه

الوصية الجلية
للسالكين طريقة الخلوتية

تصنيف

قطب الدين الأستاذ سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري

تحقيق وتعليق

الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر

دار الحقيقة

للبحث العلمي

مطبوعات

دار الحقيقة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ- ٢٠٠٨م

الناشر

دار الحقيقة

للبحث العلمي

القاهرة- مصر

٠٠٢/٠١٠١٤٦٣٠٢٧

توزيع دارة الكرز

١٧ ش منشية البكري- مصر الجديدة – القاهرة

ت ٢٤٥٥١٣٠٤

اسم الكتاب:

النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية.

ويليه: الوصية الجلية للسالكين طريقة الخلوتية

المؤلف: مصطفى بن كمال الدين البكري

المحقق: الشيخ أحمد فريد المزيدي.

الناشر: دار الحقيقة للبحث العلمي

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية:

٢٠٠٨/١٨٩٠

الترقيم الدولي/ isbn

٩٧٧-٦١٦٥٦--٨٥-١

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة التحقيق

الحمد لله الذي وفق من شاء من أحبائه لاتخاذ الخلوات، وقدس أسرارهم عن أن تجنح لشيء من المكونات، وجعلها علمًا للأحدية ومثالاً للمقامات الفردية ومجلاً للذات، وطهر بصائرهم بشهوده عن شهود المحدثات، فقامت عندهم على شهود الوحدانية دلائل وآيات، وتجلى عليهم فيها بأعلى ما يكون من التجليات، وأفاض على أهلها أنواع الإحسانات والهبات، وأفرغ عليهم ذلك من شرائف لطائف الحضرات، وأشغلهم فيها بتخليص قلوبهم من سائر التعلقات، وأطلقهم فلم يتقيدوا بها يبدوا لهم من أسرار علوياته وسيرهم على مراكب التحقيقات في البحور الزاخرات، وأخلع عليهم ملابس الولاية وحققهم في حقائق الأسماء والصفات وحرك هممهم إلى الكشف عن أسرار بكار الذات وأعطاهم على مقدار ما عندهم فيها من الاستعدادات.

وصل اللهم وسلم على المبعوث بالمكرمات الذي كان في حران عجيب الخلوات وكان له اليد الطول في الرياضات والمجاهدات ليُقتدى به في سائر الحالات، وعلى آله وأصحابه الذين نالوا به أقصى الغايات، وعلى آله أصحاب المقامات العاليات، وعلى التابعين لهم ما تفاوتت الأوقات، وما دامت الأرض والسموات وسلم تسليمًا.

وبعد .. فهذا كتابٌ نفيس مبارك متميزٌ في نوعه جديد في نسقه وترتيبه، يعتبر دليلاً موضحًا في معرفة سلوك وكسوة الطريقة الخلوتية، وقد قال الشيخ المصنف في تعريف: (الخَلْوتي) أي: المنسوب إلى طريق السادة الخلوتية -قدس الله أسرارهم بكرة وعيشة، وأول من تسمى من رجال السلسة بالخلوتي العالم العامل لها مجد أخي محمد البالسي، فإنه لكثرة خلواته سمى بالخلوتي، واشتهر أتباعه من بعده بالخلوتية.

والخلوتي: في الاصطلاح عبارة عن محادثة السر مع الحق، والخلوة: عبارة عما يخرج به المختلي من النعوت الإلهية، ولأهل الطريق اصطلاح خاص يعرفه السالك في طريقهم، ومنه الخلوة المصطلح عليها عندهم، ولها آداب كثيرة، وشروط لديهم شهيرة، ذكرتها في رسالة سميتها «هدية الأحباب فيما للخلوتية من الشروط والآداب» لخصت فيها رسالة التخلق للإمام الخلوتي من أكابر السادات الذين قد أحاطوا بالفقير كالدائرة، وكل منهم سار مدده في جدول إليَّ، فتدافعت أمواج تلك الإمدادات عليَّ، ورآني أشرب تلك البحور المتدفقة بقلائد النحور، فحمدت الله تعالى على فضله الذي به صيرني من أهله.

ثم قال أيضًا عن هاتين الرسالتين: وسميتها: «الوصية الجلية للسالكين طريقة الخلوتية» وهي ثاني رسالة وضعتها في هذه الطريقة العلية، وكنت وضعت قبلها «النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية»، فبادر للتوبة يا قاصد الكمال وانهض بالإنابة لمقامات الرجال، وافتح بالأوبة على ما في قلبك من الأقفال، فعسى أن تحظى بتجلي من تجليات العزيز الغفار، وتكون ممن تاب مولاه عليه، فتاب عليه وقربه إليه، وأقامه خليفة على الخليفة، فتاب وهيمه في شهود جماله وكماله، فانفتح له باب، فتاب وخلع عليه خلعة النيابة في سائر الأطوار انتهى المراد نقله من «الضياء الشمسي» (بتحقيقنا).

هذا .. ثُم إنه لا يخفاك أن مصنفنا الأستاذ هو الدرّ برز من بحر الصفا، ونهر الصدق والوفاء، نجل الإمام الصدّيق، وسبطي الحسن والحسين، سيدي أهل التحقيق، شيخ مشايخ أهل الطريقة الخلوتية، وسيّد أهل العصابة القره باشلية، الداعي العباد إلى الله بمرتبة أهل الوراثة المحمّدية، والقائم في منصب الإرشاد لجميع البريّة، إمام المحقّقين، وقدوة أهل الفضل واليقين، وعمدة أهل العلم الراسخين، من يُسمع من قبره الأنين، بالصلاة على النبيّ الأمين ﷺ، وقد نبّه هو في منظومته البهيّة، على عدم انقطاع الصلاة منه على خير البريّة، كيف لا، وهو قطب مصر والشام، وسيّد عصابة أهل الإسلام، مَنْ شرب الجميع من غدير نهره، ودانت له جميع أولياء عصره، شيخنا، وأستاذنا، وعمدتنا إلى الله، وملاذنا، صاحب الكشف الحقيقي بين الرجال العارفين بالله، سيدي مصطفى بن كمال، أنزل الله عليه سحائب رحمته، وأسكننا معه في فسيح جنّته، وحين دخلت لجّة هذا البحر العميق، وليس معي زاد ولا رفيق، لألتقط ما فيه مِن الدرّ والجواهر، التقمتني نون الهوى بعد أن صرت في يمّه غارقًا وحائرًا، فالتجأت إلى صاحب الجاه الرفيع، والعزّ المنيع، فإذا بي على الشطّ الآخر وقيع، وهاتف يهتف بي، وأنا كالسكران، بين النائم واليقظان، أَقْدِم على ما رمته، ولا تخف يا فلان، فأصبحت بسبب ذلك فرحًا مسرورًا، مستبشرًا محبورًا، وشرعت في تحقيق كتبه منذ فترة معتمدًا على السيد المالك، ثُم إني أعتذر لذوي الأبصار، بلسان الذلّ والانكسار، ليذَكّر من رأى منى تقصير في أيّ محلٍّ رآه.

هذا وقد قمت بالضبط والتحقيق، والتخريج، وإصلاح إشكالات النص، وما هو إلا جهد المقل، ومحاولة الاقتراب من دخول الباب، وحصول بركة الأعتاب، وطمعًا في ورثة أُولي الألباب. وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ هادي العباد، ولباب اللباب، وموصل الألباب لحضرة القدوس الوهاب.

كتبه/ أبو الحسن والحسين: أحمد فريد المزيدي ٠١٠١٤٦٣٠٢٧

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي خلع على من ارتضاه خلع القبول، وكساه ثواب الوقار، وألبسه لباس أهل التقوى، وأيده منًّا منه بسواطع طوالع الأنوار، وتوج من اختاره تيجان الولاية، بعد ما أطلعهم على غوامض الأسرار، ورد آل برد الكمال، وحلاه بثوب الجلال والجمال، وجعله من أهل البصائر الأبصار، ووهبه من اللطائف الإلهية برودًا، وحباه من المعارف الربانية وفودًا، فكان من الذين سيأتيهم حسنات لدى الأبرار، وخرج له الحجب النورانية، وأسبل عليه ستائر الخرق العرفانية، فأورثاه الخرقة العيانية، فأفنى به عنه، وانمحت منه الآثار، فسبحانه من إله يكسى من أعزه بكسوة القبول، ويحمله على متون نسائم الإسعاد إلى منازل الوصول، ويكشف له عن جماله الأستار، ومن أذله ألبسه لباس الخمول، وصير حبل قربه مقطوعا بعد أن كان موصولا، وحجبه عن مشاهدة الحمى، وتجلى عليه باسميه القهار الستار.

أحمده سبحانه وتعالى على نعمه التي لا يحصرها عد، ولا يحيط بها حد على ما كسانا من ثياب الإيمان، وحلانا به من حُلي الجود والإحسان ما غردت الأطيار على الأشجار، حمد عبد مقر بالعجز والتقصير عن القيام بواجب حمد من إليه المصير، أناء الليل وأطراف النهار، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، شهادة تسدل علينا ملابس أهل العيان من المصطفين الأخيار، وأشهد أن سيدنا وسندنا محمد عبده ورسوله، وحبيبه وخليله صلى الله تعالى عليه وعلى آله وأصحابه ما كسي عريان أثواب الحقائق في سائر الأدوار.

وبعد؛ فاعلم - مَنَّ الله عليك بحسن الفهم، وخلَّصك من حبائل الوهم- أن اللباس على قسمين: ظاهر وباطن:

والظاهر على قسمين: لباس يقي من الحرِّ والبرد، ولباس أعمال صالحة تقرب العبد من الحبيب الفَرد.

والباطن على قسمين: لباس مشاهدة سرية، ولباس مجاهدة قلبية:

فالمشاهدة: لباس باطن القلب، والمجاهدة: لباس ظاهره؛ فلباس القلب الحضور، ولباس السر الغيبة عن الحضور، ولباس تقوى، ولباس أقوى، والأقوى؛ هو محو رؤية

التقوى، ولباس محبة، ولباس قربة، ولباس خرقة، ولباس حجة، والخرقة خرقتان: خرقة تبرك بلباس السادة، وخرقة إرادة، والإرادة؛ هي مخالفة ما عليه العادة، ولباس فناء بعد لباس ثوبي جد وعناء، ولباس بقاء بعد لباس ارتقاء، وقلت:

واتَّخِـــذَ حبَّـــهُ سُـــعادَ أوتـــارًا ... قُرْبُـــه جنَّـــةٌ مِـــن الأســـواءِ

وصـــلاةٌ ثُـــمَّ الـــسَّلامُ عَـــلَى مَـــنْ ... فَـــتَحَ الـــصبَّ حُلَّـــةِ الاصـــطِفاءِ

وعـــلى آلـــهِ وصـــحبِ هُـــداةٍ ... ألبَـــسونا ملابِـــسَ الاقتِفـــاءِ

قَـــدْ كَـــسانا الَفتَـــى ثيـــابَ البقـــاءِ ... وسَـــقانا الحبيـــبُ كـــأسَ اللِقـــاءِ

ونَزَعنـــا ثـــوبَ الوجـــودِ لأنَّـــا ... قَـــدْ شَـــهِدْنا الوجـــودَ محـــضَ هبـــاءِ

فخَلعنَـــا العِـــذارَ والخلـــعَ فـــرض ... إذ بِـــهِ ينمَحِـــي غـــشاءُ الحـــشاءِ

وبِـــهِ يكتـــسِي الخليـــعُ ثيابًـــا ... مِـــن شـــهودٍ ومنحـــةٍ وعطـــاءِ

مزِّقـــوا وافتُقـــوا رتُـــوقَ فُـــؤادٍ ... أيُّهـــا القـــومُ فَهْـــوَ عـــينُ الـــصَّفاءِ

واخرِقـــوا سِـــتْرَ وهمِكُـــمُ تـــشهَدُوا ... واغرَقـــوا في بِحـــارِ سِرِّ الْـــولاءِ

وافنَـــوا فيْـــهِ بِـــهِ لَـــهُ عَـــنْ سِـــواهُ ... أهـــلُ ودِّي وعَـــنْ فنـــاءِ الفنـــاءِ

هَـــذِهِ كِـــسوةُ المُريـــدِ فكنْـــهِ ... إنْ تُكنْـــهِ تَرْقَـــى لِأعـــلَى العَـــلاءِ

ثُـــمَّ صُـــنها عَـــنْ كُـــلِّ مَـــنْ لمْ يـــصُنهَا ... إنَّ كِتمانَهَـــا قـــرينُ الوفـــاءِ

واحتَـــسِى مِـــن خمورِهـــا واكتَـــسِى مِـــن ... ثـــوبِ وصـــلِ المُنَـــى لِأجـــلِ المنـــاءِ

ثم اعلم أن إلباس الخرقة المتعارف عليه عند السادة الخلوتية، وغيرهم من الصوفية أصل في السنة المحمدية، وذلك في حديث أم خالد، قالت: «أتى النبي ﷺ بثياب فيها خميصة سوداء صغيرة، فقال: ائتوني بأم خالد فأوتي بي، قالت: فألبسنيها بيده، وقال: ابلي واخلقي»[1] وهو مخرج في الصحيح، ولباسها من جملة القرب، كما ذكره بن الصلاح فقال: إن من القرب لبس الخرقة، ثم أورد الحديث، ثم قال: ولي في الخرقة سند عالٍ جدًا

---

(١) رواه أحمد (٦/ ٣٦٤)، والحاكم في «المستدرك» (٣/ ٢٦٩).

وذكره، ثم قال: وليس بقادح فيما أوردناه كون لباس الخرقة غير متصل إلى منتهاه على شريط أصحاب الحديث في الأسانيد، فإن المراد ما يحصل به البركة والفائدة باتصالها بجماعة من الصالحين، انتهى.

وقد صنف قطب الدين القسطلاني رسالة سماها «ارتقاء الرتبة في اللباس والصحبة» وقال صاحب «عوارف الإرادة وخرقة التبرك»: والأصل الذي قصده المشايخ للمريد خرقة الإرادة، وأما خرقة التبرك فتشبه بخرقة الإرادة، فخرقة الإرادة للمريد الحقيقي، وخرقة التبرك للمتشبه، **«ومن تشبه بقوم فهو منهم»**[1].

وسر الخرقة أن الطالب الصادق إن ادخل في صحبة المشايخ وسلم نفسه، وصار كالولد الصغير مع الوالد، يربيه الشيخ بعلمه المستمد من الله تعالى بصدق الافتقار، وحسن الاستقامة، ويكون للشيخ بنفوذ بصيرته الإشراف على البواطن، فقد يكون المريد يلبس الخشن، كثياب المتقشفين المتزهدين، وله في تلك الهيئة من الملبوس هوى كامن في نفسه؛ ليرى بعين الزهاد، فأشد ما على هذا لبس المناعم.

وإذا كان للنفس هوى واختيار في هيئة مخصوصة من الملبوس في قصر الكم والذيل وطوله وخشونته ونعومته على قدر حسبانها وهواها؛ فيلبس الشيخ لمثل هذا الراكن إلى تلك الهيئة ثوبًا يكسو بذلك على نفسه هواها وغرضها، وقد يكون على المريد ملبوس ناعم، أو هيئة على في الملبوس مخصوصة؛ تشربت النفس تلك الهيئة بالعادة، فيلبسه الشيخ ما يخرج النفس من عادتها وهواها، فتصرف الشيخ في الملبوس؛ كتصرفه في المطعوم، وكتصرفه في صوم المريد وإفطاره، وكتصرفه في أمر دينه إلى ما يرى له من المصلحة من دوام الذكر، أو دوام التنفل بالصلاة، أو دوام الخدمة، وكتصرفه فيه برده إلى الكسب، أو الفتوح، أو غير ذلك، فللشيخ إشراف على البواطن، وتنوع الاستعداد قياس كل مريد من أمر معاشه، ومعاده بما يصلح له، ولتنوع الاستعداد تنوعت مراتب الدعوة.

قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَـٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]؛ فالحكمة رتبة في الدعوة والموعظة كذلك، والمجادلة كذلك، فمن يدعي بالحكمة لا يدعي بالموعظة، ومن يدعي بالموعظة لا تصلح دعوته

---

(١) رواه أحمد (٢/ ٥٠)، وأبو داود (٤/ ٤٤).

بالحكمة، فهكذا الشيخ يعلم من هو على وضع الأبرار، ومن هو على وضع المقربين، ومن يصلح لدوام الذكر، ومن يصلح لدوام الصلاة، ومن لا يصلح، ومن له هوى في التخشين، أو في التنعيم فيخلع المريد عن عادته، ويخرجه من مضيق نفسه، ويطعمه باختياره، ويلبسه باختياره ثوبًا يصلح، وهيئة تصلح له، يداوي بالخرقة المخصوصة والهيئة المخصوصة داء هواه، ويترجى بذلك تقريبه إلى رضا مولاه؛ فالمريد الصادق والملتهب باطنه بنار الإرادة في بدء أمره وحدة إرادته؛ كالمليء الحريص على من يريقه ويداويه.

فإذا صادق شيخنا انبعث من باطن الشيخ صدق العناية؛ لإطلاعه عليه، وينبعث من باطن المريد صدق المحبة؛ فتأتلف القلوب، وتتآلف الأرواح؛ فيظهر سر السابقة فيهما باجتماعهما لله في الله بالله، فيكون القميص الذي يلبسه المريد خرقة تبشر المريد بحسن عناية الشيخ، فيعمل عند المريد عمل قميص يوسف عليه السلام عند يعقوب عليه السلام.

ثم قال: ويرى لبس الخرقة من عناية الله تعالى وفضله، فأما خرقة التبرك يطلبها من مقصوده التبرك بزي القوم، ومثل هذا لا يطالب بشرائط الصحبة بل يوصى بلزوم حدود الشريعة، ومخالطة هذه الطائفة؛ لتعود عليه بركتهم، ويتأدب بأدبهم، فسوف يرقيه ذلك إلى الأهلية لخرقة الإرادة، فعلى هذا خرقة التبرك مبذولة لكل طالب، وخرقة الإرادة ممنوعة إلا من الصادق الراغب، انتهى.

قلت: هذا غير مصطلح أهل طريقتنا، فإنهم لا يسمون خرقة إلا الذي قد اصطلحوا على إلباسها لمريدهم، وإذا أعطوا مريدًا ثوبًا ،أو قميصًا على سبيل التبرك والمحبة، لا يطالبونه بشرط الصحبة، إلا إن طلب هو منهم أن يشرطوا عليه، شرطوا عليه بما يناسب حاله، ولا يسمون خرقة الإرادة إلا الصحبة والآداب، ويجعلون الخرقة التي يلبسونها لمن سلك في طريقهم، واستحق لبس كسوتهم المعهودة المعلومة عندهم، وقام بشرائطها كالعلامة عليها، فإن لها شروط سنذكر طرفًا منها.

قال الشعراني في «النفحات القدسية في بيان آداب الصوفية»، وذكر الشيخ محيي الدين -قدس الله سره- في الباب الخامس والعشرين من «الفتوحات المكية» ما نصه: كنت لا أقول بلبس الخرقة، وما كنت أعرف الخرقة إلا الصحبة والآداب، لا غير، قال: ولهذا لا يوجد إلباسًا متصلاً برسول الله ﷺ؛ ولكن لما رأيت الخضر اعتبرها، قلت بها من ذلك

الوقت، وألبستها الناس بعد أن لبستها من يدي عيسى ﷺ، ومن يد جماعة من الأشياخ، ومن يد الخضر ﷺ.

والسر في إلباسها أن الشيخ إذا رأى أن يكمل فقيرًا و الشيخ في غلبة حال ينزع ذلك الثوب الذي عليه في ذلك الحال، ثم يلبسه للرجل الذي يريد تكميله؛ فيسري فيه ذلك الحال، فيكمل حاله حين ذلك، فهذا اللباس المعروف عندنا وعند المحققين، وهكذا ألبسنا وألبسنا المريدين، وكل إلباس على غير ذلك، فإنما هو تشبيه بأهل الطريق، وتبركهم.

ثم قال: قلت: ونظير ذلك إرخاء العذبة؛ فإنه إنما جعل إظهار إلا عطاء صاحبه النمو والزيادة في كل شيء نظر إليه أو مسه، «ولما أرخى النبي ﷺ العذبة لعليّ ﷺ كان يتوضأ الوضوء كاملاً من كف واحد»، كما روى البيهقي[1]، وقصرت خشبة عن سقف بيته فمدها فامتدت، فمن أرخى له عذبة، ولم يكن له هذا المقام كان جسدًا بلا روح، والله أعلم، انتهى كلامه.

قلت: وفي هذا إشارة إلى أن من ألبس الكسوة لأحد أتباعه، وأرخى له العذبة فإنه لابدَّ منها، فإنها سنة من سنن سيد المرسلين ينبغي أن يصرف همته، ويتوجه إلى الحق تعالى في إمداد من ألبسه الكسوة، أو أرخى له العذبة، ثم إذا استقام المريد على قدم الصدق، وما نقض عهد الشيخ لابدَّ أن يظهر عليه أثر ما توجه الشيخ له فيه ولو بعد حين، حتى أن بعض المريدين يظهر عليه الأثر في الحال؛ لصدقه وقوة حال الشيخ، وأما إذا كان الطالب ضعيفًا، أو المطلوب كذلك فيتأخر الأثر على قدر الضعف منها، ولكن لابدَّ من الإجابة لقوله تعالى: ﴿أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة:١٨٦]، فوعد بالإجابة، وهو لا يخلف وعده، حتى من فاته الأثر في الدنيا يحصل عليه في الآخرة.

فإن قلت: فإن كان إرخاء العذبة سنة كما ذكرت؛ فلم يحتاج في إرخائها إلى إذن من الشيخ، قلنا: فرق بين ما إذا أرخاها له الشيخ، وبين ما إذا أرخاها هو لنفسه، ومعلوم: «أن الإمام عليّ ﷺ كان قبل أن يرخيها له رسول الله ﷺ يرخيها هو لنفسه» لكن لم يكن له من المدد ما كان له وقت أن أرخاها له ﷺ فكل فعل فعله المريد بنفسه ما عدا الأوامر الإلهية له فيه الثواب من غير ترقي، وأما إذا كان بإذن من الشيخ ففيه الثواب والترقي؛ لأن الطريق

(١) في (٥/ ٩٦).

مبني على اتباع أنفاس الشيوخ.

قال ابن أبي شريف في رسالته «صوب الغمامة في إرسال طرف العمامة»: بعد ما ذكر أن إرخاء طرف العمامة من سمات الملائكة المسومين يوم بدر، وقيل يوم حنين، وأورد عشرة أحاديث في تعممه وتعميمه لغيره، وإسدالها تارة من خلف مقدار أربعة أصابع، وتارة كان يسدلها من بين يديه، ومن خلفه واستدل بما ذكره من الأحاديث على استحبابها، وإن فعلها يرجح على تركها.

ونقل عن النووي: أن الإسبال في العمامة كالإسبال في الثوب إن كان للخيلاء حرم، وإن كان لا للخيلاء كره، وإن هذا، أي: إسبال الثوب في غير النساء، وأما هم فيجوز لهن الإسبال ذراعًا بذراع اليد، ثم قال بعد أن ذكر أحاديث صريحة في النهي عن إسبال الثوب: وإن إطالة العذبة طولاً فاحشًا يسمى بالإسبال.

وهنا تنبيه: وهو أن العذبة قد صارت من شعار السادة الصوفية، وأكابر العلماء، فإذا تلبس بشعارهم ظاهرًا من ليس منهم حقيقة بقصد التعاظم على غيره أثِم باتخاذها بهذا القصد، وكذلك لو فرض اتخاذها بهذا القصد من عالم أو صوفي فإنه يأثم به؛ سواء أرسلها أم لم يرسلها، طالت أم لم تطل، ثم ذكر أن كفًا في الصلاة منهي عنه؛ ككف الثوب والشعر فيها انتهى.

وقد صنف الإمام ابن حجر الهيتمي رسالة سماها «در الغمامة في در الطيلسانة والعذبة والعمامة» وهي بديعة المثال، والله أعلم.

ونقل الشعراني في «الطبقات»[1] في ترجمة سيدي إبراهيم الدسوقي- قدس الله سره- فقال: وجاء الفقير يطلب أن يلبس الخرقة من الشيخ فنظر إليه، وقال: يا ولدي التلبس في الأمور ما هو جيد، ولا يصلح لبس الخرقة يا ولدي إلا لمن درسته الأيام، وقطعته الطريق بجهدها، وأخلص في معاملته وقرأ معاني رموز القوم، ونظر في أخبارهم، وعرف مقصودهم في سائر حركاتهم، وسكناتهم، وأسفارهم، وخلواتهم، وجلواتهم، فإن كنت صادقًا فلا تكن مجانًا، ولا لعّابًا، ولا صبي العقل، فما الأمور بقول العبد: تبت إلى الله

(١) في (١/ ١٨٠).

تعالى باللفظ دون القلب، ولا بكتابة الورق والدرج، وإنما الأمر توبة العبد عن ألا يلاحظ الأكوان بعين قلبه، أو يراعي غير مولاه، فإذا صح للفقير هذا الأمر فهناك يصلح للترقي في مقامات الرجال.

ثم قال: وكان ﷺ يقول: ليس كل من تزيَّ بزي القوم ينفعه زيه، أو درجه، وخرقته فإن هذه أمور ظاهرة، والقوم إنما عملهم جواني؛ إذ بذلك يرقوا إلى مراقي الرجال، وما رأينا أحدًا لبس جبة، أو كتب له إجازة فبلغ مبلغ الرجال بذلك قط، بل فعل ذلك يوقف المريد عن طلب المزيد، والأمر ليس له قرار.

ثم قال: وكان ﷺ يقول: يا ولدي البس قميص الفقر النظيف الظريف ما الفقر بلبس الثياب، ولا بسكنى القباب، والخانقات، ولا بالزوايا، ولا بلبس العباء ولا بالأزرق وخف الشوارب، ولا بلبس الصوف، ولا بالنعل المخصوف، إنما الفقر بأن تخلص عملك في قلبك، وتلبس ثوب صدق عزمك، وتحتزم بمحزم إيمانك، فإذا كان عملك كله في قلبك كان فائدة وربحًا، واضرم نار القلب، واحرق الأحشاء، واملأ القلب خوفًا من الله تعالى، ومحبة له، فما رقيق الثياب حينئذ، وما خشنها، فإذا قويت في القلب الأنوار؛ لم يطق صاحبه حمل ثوب رقيق، ولا إزار.

قلت: وهذا سبب ترك بعض القوم لبس الثياب من مجاذيب، وصحاة، والله أعلم.

قال الشيخ ﷺ: فإن تهلك هذه فلا يلام، وإن صاح، أو باح فقد حمل عند الملام، وإن رش عليه الماء في ليال الأربعينات لا يزيد إلا اضطرام، وكل شيء نزل باطنه من الطعام، والماء صار نارًا واستنار، فيا أولادي الفقراء كلهم عندي ملاح، فليكون عندكم كذلك، فاحذروا الأفكار، انتهى.

وكان سيدي أحمد الرفاعي -قدس الله سره- إذا رأى على فقير جبة صوف يقول: يا ولدي انظر بزي من تزييت، وإلى من قد انتسبت، قد لبست لبسة الأنبياء، وتحليت بحلية الأتقياء، هذا زي العارفين، فاسلك فيه مسالك المقربين وإلا فانزعه، انتهى.

فعلمه بذلك أن من أراد أن يتزيَّ بزي القوم ينبغي له أن يتخلق بأخلاقهم ولو كان قصده التبرك، فإن التزي بغير اقتداء لا ينفع المريد أبدًا، فإن من تزيًا ولم يتخلق بأخلاق أهل ذلك الزي فقد غش نفسه، وربما غر غيره بزيه، فاقتدى به ظنًّا منه أنه من أهل الله

العارفين الذين تزيًا بزيهم، وهو عارٍ عن لباسهم، وكثير من الناس يقنع بلبس الصوف من غير سلوك طريق التصوف.

قال الششتري ﷺ: كن بالصفاء موصوف، والبس صنوف ألوان التصوف بالصوف طار الخروف، وإنما سميت الطائفة بالصوفية، فقيل: للباسهم الصوف.

وقيل: من تخلقهم بالصفاء، وقيل غير ذلك، فمن انتسب إليهم بمجرد الزي من غير تخلق فذلك لا يجديه ، إلا أن يكون تلبس بزيهم لحبهم **«ومن أحب قوما حشر معهم»**[1] لكن أهل الهمة العلية لا يرتضون لنفوسهم مجرد نسب الحب، فإن هذا النسب يشاركهم فيه الكثير وأما نسب الاقتداء والاتباع فقليل، فليس الشأن فيمن انتسب وما اكتسب، إنما الشأن فيمن انتسب، واكتسب، وما احتجب، وليس الشأن فيمن حمل الإشارات، إنما الشأن فيمن فهم دقائق الإشارات، وما الشأن في حمل الأعلام، بل الشأن في اقتفاء أثر الأعلام، ولا الشأن في أكل النار؛ بل في محب باطنه بالشوق أنار، ولا في دق الطبول؛ بل في طلب القبول، ولا في ضرب الزاهر؛ بل في العثور على السر الباهر، وليست هذه الإشارات موضوعة سدى بل أهلها أشاروا بها لمعان خفية، ورموز عند أهلها جلية، وقد اصطلح كل فريق على لباس يلبسونه لمريديهم؛ ليتميزوا به عن غيرهم.

كما أن الملك الأشرف في سنة ثلاثة وسبعون وسبعمائة وضع لأولاد الحسين العلامة الخضراء؛ ليتميزوا بها عن غيرهم، حتى أفتى العلماء بعد ذلك بعدم جواز لبس العمامة الخضراء، أو وضع العلامة إلا لمن كان له نسب لأحدهما؛ لأنهما صارا علامتان على الأشراف، ويستأنس لها «أن عيسى ﷺ ينزل، وعليه عمامة خضراء» كما جاء في الحديث الشريف.

وقد استدل بعض العلماء بآية ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ قُل لِّأَزْوَٰجِكَ وَبَنَاتِكَ وَنِسَآءِ ٱلْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِن جَلَٰبِيبِهِنَّ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَن يُعْرَفْنَ فَلَا يُؤْذَيْنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٩] على تخصيص أهل العلم بلباس يختصون به؛ ليعرفوا فيبجلوا تكريمًا للعلم الشريف كما يستأنس بها؛ ليتميز الأشراف من أهل البيت، بل هي فيهم أظهر، وكذلك اصطلحوا على أوراد، وأسماء يلقنوها لهم، وعلى ألفاظ يفهمون منها

(١) رواه الحاكم في «المستدرك» (٣/ ١٩).

ما لا يفهمه غيرهم؛ صيانة لطريقتهم أن يدعيها من ليس من سالكيها، وجعل الكل مقام من مقامات طريقهم علامة يدركها من وصل لذلك المقام، فإذا ادعى من لم يكن قد وقف على اصطلاحاتهم، وعلامتهم السلوك في طريقهم، سألوه عنها فلا يجيب فيتحققون أنه عنهم غريب، وعند الامتحان يكرم المرء أو يهان.

ولا يلبسون أتباعهم، ويسمحون لهم بخرقهم إلا الذي يوافقهم في حرقهم، ولا يمنحون نداهم إلا لمن اقتدي بهداهم، ولا يكشفون أستارهم إلا لمن كتم أسرارهم، ولا يعطون مفاتيح الكنوز إلا لمن حل الرموز، ولا يفتحون الباب إلا لمن تأهل لشرب الشراب، ولا يعترفون لأخذ المفتاح إلا إن تناوله من الفتاح، فإذا أرادوا أن يلبسوا مريد خرقتهم تربعوا حتى تحصل لهم الإشارة بإلباسها له، وأنه قد تأهل لها، والإشارة قد تكون بطريق الإشراف، فإذا أشرف الشيخ على باطن المريد، ورآه قد اكتسى بحلة الأخلاق المحمدية، وأشرق باطنه بالأنوار العرفانية والأسرار الربانية، وتحلى بعد التحلي بالأوصاف الإلهية، وألبس في باطنه تاج الولاية، وتزين بزينة الفهم الثاقب في المعاني بسابق العناية، فيجب له العدل بين الظاهر والباطن، فيلبسه كسوة الظاهر؛ ليجمع له بين كسوة الظاهر والباطن، وقد تكون الإشارة برؤيا المريد، أو برؤيا بعض إخوانه له، أو الشيخ، ولكن ينبغي للشيخ التثبت؛ ليتحقق منه الأهلية لذلك، فإنها علامة وإشارة على ما هنالك.

وكان سبب وضعي لهذه الرسالة: هو أن كثيرًا من الناس يلبسونها من غير معرفة آدابها وشروطها، وربما لبسها من لم يسلك الطريق، ولا سار في فيافي أولئك الفريق، وأهل الطريق إنما وضعوا هذه الكسوة للتميز بين من اكتسى باطنه بأخلاق الطريق، ومن لم يكتسِ من الإخوان، وغيره، فكم من لابس لها وهي غير لابسة له، وبالعكس؟

فينبغي لمن تحمل ظاهره بها أن يجمل باطنه بأنوار آدابها، ويحمد الله الذي أهله لأن يكون ممن تحلى بحلية القوم، وليعتقد في نفسه أنه قد تشرف بها، وأنه ليس بصالح لها، وقد سميتها: «النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية»، ونرجو منه التوفيق إنه نعم الرفيق.

فاعلم أيها المريد، جعلك الله ممن عن طريق الآداب لا يحيد، إن بالآداب يرتقي العبد إلى منازل الأحباب، ويفتح له ما سد دونه من الأبواب.

روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «إن الله- عز وجل- أدبني فأحسن تأديبي»[١]، وعنه ﷺ «حق الولد على والده أن يحسن اسمه، ويحسن موضعه، ويحسن أدبه»[٢].

وما أحسن قول البوصيري -قدس الله سره- في قصة عثمان ﷺ

أَدَبٌ عنده تَضَاعَفَتِ الأعـ مالُ بالترْكِ حَبَّذَا الأُدَباءُ

فالأدب عنوان الخوف، والخوف عنوان المعرفة، فمن لا أدب عنده لا معرفة له، وأدب الظاهر دليل على أدب الباطن، فمن لم يدرع بدروع آداب الطريقة؛ قطعت فيه سيوف قواطع الحقيقة، ومن راعى الأنفاس، وحفظ الحواس، وعمل على طهارة الفؤاد، وقطع في سلوكه إليه ألف واد، ورمي بالخواطر، وانشق شذا الحمى العاطر، ووفي بالعهود، ودام على الشهود، وأحسن إلى من أساء، وترك عل وعسى؛ كان أديب زمانه، وغريب أقرانه وخلانه، وقد بَنَت القوم ـ رضوان الله تعالى عليهم ـ أساس طريقتهم على الأدب، وحسن الطلب، فسبقوا السباق، ورقوا أعلى الطباق.

وقيل لبعضهم: يا سيء الأدب، فقال: لست بسيء الأدب، فقيل له: من أدبك،؟ قال: أدبني الصوفية، انتهى.

قال الشعراني ﷺ في «مدارج السالكين»: وقد كان الجنيد ﷺ إذا جاءه مريد يريد الطريق إلى الله تعالى، يقول له: اذهب فاخدم السلطان، وأهل حضرته، واعرف مراتبهم، ثم تعال.

وكان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: الفقراء كالملوك، فمن يعرف أدب الملوك لا ينبغي له مجالستهم؛ لأنه ربما جره عدم احترامهم إلى العطب، بل أقول: إنه ينبغي له أن يتأدب مع الفقراء أعظم من الملوك؛ لأن أدنى الفقراء قد زهد فيما رغب فيه أعلى ملوك الدنيا، فهم أعلى مرتبة من الملوك، وأعظم مروءة، فافهم.

وكان سيدي إبراهيم بن أدهم ﷺ يقول: لو يعلم الملوك ما الفقراء فيه لقاتلوهم عليه بالسيوف.

---

(١) ذكره المناوي (١/ ٢٢٥)، والعجلوني في «كشف الخفاء» (١/ ٧٢).

(٢) رواه البيهقي في «الشعب» (٦/ ٤٠٠).

وكان شيخنا يقول: إذا ضحك الفقير في وجه أحدكم، وانبسط فاحذروه، ولا تجالسوه إلا بالأدب، فربما كان ذلك مكرًا بكم، وطردًا لكم عن صحبته؛ حيث لم يتفرس فيكم خيرًا، فاعلم ذلك.

وأن يجتنب الفقراء الجاهلين بآداب الشرائع، كالمطاوعة، ومن ينتسب إلى الأحمدية والبرهانية، ونحو ذلك من الخرق الذين يكتفون بتلك النسبة، ولا يطلبون أدبًا فوق ذلك، فإن هؤلاء مشايخهم متبرءون منهم، ولو حضروا موالدهم، وهاموا عند ذكرهم؛ لأنه نسب الفقراء، والقرب منهم إنما هو سلوك الأدب مع الشريعة، فكل من كان أكثر أدبًا في الشريعة، كان أقرب إلى حضرة شيخه الذي انتسب إليه؛ لأن هؤلاء المشايخ أصحاب الخرق، هم صدور مجالس الحضرة المحمدية، وتلك مائدة لا يقعد عليها طفيلي، ولا يقدر شيخه يقربه إليه في تلك الحضرة، ويرفعه إلى مرتبة غيره من أهل الأدب.

وقد كان سيدي إبراهيم الدسوقي ﷺ يقول: إياكم والقول بالمشاهدات، والدعاوى التي لا يشهد لها كتاب، ولا سنة؛ فإنها سبب لطردكم من حضرة ربكم، وكان يقول: طريقنا هذا مضبوط بالكتاب والسنة، فمن أحدث فيه ما ليس في الكتاب، ولا في السنة فليس هو منا، ولا من إخواننا، ونحن بريئون منه في الدنيا والآخرة، ولو انتسب هو إلينا بدعواه.

والسر فيما ذكرناه من النهي عن مخالطة أهل البدع: أن معاشرتهم تميت قلب الفقير حتى يصير كالثوب الخلق، وما جعل الله حياة القلوب إلا بالأعمال التي جاءت بها الشريعة، فلا يزال الفقير يخالط أهل البدع حتى يطرد إلى حضرتهم، ويقع فيما وقعوا فيه.

قال الأشياخ: ومن أعظم القواطع للمريد معاشرة أبناء الدنيا الذين يطلبون العلم لغير العمل، ويشتغلون بالفروع الطالعة مما لا يحتاج أحد من الناس إليها؛ طلبًا للرئاسة على أقرانهم، وربما زينوا للمريد أن الاشتغال بما اشتغلوا به أفضل من الاشتغال بذكر الله عز وجل؛ فيتبدد عزمه، وينحل عما كان عقده مع شيخه؛ فيمقت، فلا يصير يفلح بعد ذلك أبدًا، انتهى.

فافهم ذلك، واعمل عليه، تخلص من ورطة المنتسبين بالقال دون الحال والأعمال، الظانين أنهم بمجرد الانتساب يرفع لهم الحجاب، ويكشف لهم الحبيب عن وجهه النقاب،

ويمنحهم لذيذ الخطاب، ويسقيهم خالص الشراب، كلا بل هم في شك من ذلك وارتياب؛ إذ قد ربط الحق تعالى المسببات بالأسباب، فمن ظن إنه يصل إلى المسبب بدون السبب فقد جاء للبيوت من غير الأبواب، فإن قلت: قد يهب الوهاب لعبده بدون سبب ما لم يكن له في حساب.

قلنا: ذلك خرق عادة، وله تعالى ذلك، ولكنه نادر، وهو لا حكم له عند أهل الألباب، وقوله تعالى: ﴿وَهُزِّىٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ﴾ [مريم:٢٥]، دليل على الأمر بتعاطي الأسباب، فتسبب أيها المريد في حال قلبك بذكر الله المستطاب، وتمسك بحبل الله المتين؛ فهو حبل الآداب، تبصر العجب العجاب، وتصير من الأحباب، ولما أتى على من أغلب سالكي هذه الطريقة عدم الفلاح ،والنجاح إلا من عدم تمسكهم بالآداب التي قد شرطها أهل الطريق على كل سالك في هذا المنهاج، وعارج هذا المعراج.

ولما كان الطريق مبنيًا على الأدب، وبه يخلص المريد من نفسه، ويبلغ الأرب؛ جعلوا اللباس الكسوة، إذا يتأدب بها أهلها من كل صادق في الإرادة خارج عن العادة.

فمنها: إن الشيخ إذا أراد أن يلبسها لأحد من إخوانه يأمر النقيب أن ينبه على إخوانه الذين قد تشرفوا بلبسها ليحضروا وقت إلباسها، ثم بعد أن يجتمعوا يقدم النقيب كسوة المريد للشيخ، فيشرع في لفها، ويكون المريد قد وقف هو والجماعة أمام الشيخ، ويتقدم النقيب عليهم، ويصلي الشيخ على النبي ﷺ بهذه الصيغة مادام يلفها، وهي: اللهم صل على سيدنا ونبينا محمد، صاحب العمامة والعلامة، والرسالة والنبوة، وعلى آله وصحبه وسلم.

وهكذا يفعل المريد كلما لفها، فإذا انتهى من لفها يقول الشيخ: الله أكبر الله أكبر، فيقول الحاضرون معه: لا إله إلا الله، والله أكبر الله أكبر، ولله الحمد، يقول ذلك ثلاثًا أو أكثر، وكذلك يفعل المريد كلما لفها، أو أراد لبسها، ويكون النقيب قد قدمه، وأجلسه بين يدي الشيخ، ويأخذ ما على رأسه، ويضعها الشيخ وهو يكَبّر، والجماعة يكَبّرون معه، ويرخي له العذبة في ذلك الوقت، وإن شاء أقرها، وإن أرسلها له يرسلها المريد عند الصلوات، وعند غيرها بالخيار، وهل يجعلها من الشاش، أو من غيره الأمران جائزان، وإذا كانت من غيره أغنت عن العصابة التي يعصب بها الشيخ كسوته إذا شاء، فيعصب

الأسود بعصابة بيضاء، وفي الأبيض يجعلها سوداء، وهذه العصابة لا تكون إلا للمرشد، وبها يتميز المأذون له بالإرشاد من غيره، ويقرأ الفاتحة، ويدعو له بما يجريه الحق على لسانه، ويأمن من حضر، ويقبل المريد يد الشيخ أو ركبته، ويصافح إخوانه ويهنئونه، ثم يذهب كل واحد منهم لحاجته، إن لم يكن هناك ما يصنعه القادر عليه من الإخوان من الزاد؛ شكرًا للنعمة؛ وإظهارًا للفرح والسرور بها، ورجاء نيل الثواب بسبب اجتماع إخوانه على ذكر الله تعالى؛ وترغيبًا للقاصرين عن درجته بحسب الطريق، وكثير من الأشياخ يدعون إلى حضور إلباسهم المريد بعض إخوانهم، ولو مأذونًا له في الإرشاد والسلوك من أهل طريقهم رجاء أن تحف المريد بركاتهم، وتشمله نظراتهم، هذا إذا كان ممن يروم لبسها ظاهرًا، وأما من يروم أن يلبسها تحت العمامة ،كالطاقية لعارضٍ ما، فلا يحتاج إلى جمع الإخوان إلا إن طلب هو ذلك، وإذا ألبسها له الشيخ لا بأس أن يكشف له عن بعض أسرارهم، وما احتوت عليه من رموز، فإنها احتوت على صورة اسم الله الأعظم.

والهُوية التي قد وضعها سيدي علي أفندي قرة باش -قدس الله سره- ومن الخلوتية من يجعل ضربها اثنان وثلاثون ضربًا، وهم خلوتية الشام عندنا، فإنهم اعتبروا عدد حروف الجلالة الظاهرة، ومنهم من جعلها أربعون؛ وهم أهل طريقتنا؛ لأنهم اعتبروا تشديد اللام، ومنهم ثمانية وأربعون، فنحن نجعل هكذا صورتها كما ترى.

ومنهم من يجعل مكان الهوية زرًا، ومنهم من يجعل له زرًا كبيرًا، وفوقه آخر أصغر منه، وفوقه آخر أصغر من الثاني، ومنهم من لم يجعل لها في وسطها إشارة، ولكل منهم مقصد ورمز يفهمه أهلها.

ومنها: أنه إذا وضعها على رأسه يجعل الكتابة نحو السماء، وينبغي للخادم إذا كانت الفقراء في الذكر، وخلع أحدهم ثوبه أو كسوته، أو سقطت لغلبة وجدان يرفعها لوسط الحلقة، ويرفعها عن مواطئ الأقدام؛ إكرامًا لها، ولا يضع واحدة فوق أخرى، وأما إذا كانت كسوة الشيخ فينبغي له أن يمسكها هو أو من يكون مقربًا عند الشيخ إلى أن يجلس، فيضعها بإذنه على رأسه إذا كان قد قلعها باختياره، أو سقطت عنه لوجد، أو نحو ذلك، وللجماعة أن يوافقوه بمجرد قلعها، أو سقوطها في الحال، ويقلعوا عمائمهم وكساويهم؛ حبًا في الموافقة، واقتداء به، وإن رمي بها للقوال أو بردائه، فلهم أن يوافقوه إن كانوا صادقين، وليحذر المريد من رمي خرقته للقوال والشيخ حاضر، فإنه ترك أدب، فإذا جلس الفقراء؛ أي: بعد الفراغ من ذكرهم، أو سماعهم، وضعت الخرق، والعمائم كلها

عند كبيرهم، فيحكم فيها بما يريد من إعطائها لأصحابه أو للقوال، وليس للقوال أن يطلب من الفقراء شيئًا لم تطب به نفوسهم، قاله الشعراني في« مدارج السالكين».

ومنها: ألا يتقدم على أحد من إخوانه في ابتداء الأوراد وختمها، أو الإمامة بهم، ولو لم يكونوا لا بسين لها إلا إذا قدموه وارتضوه، بل يعرض عليهم ذلك، فإن تقدم أحد منهم عليه تبعه، واقتدى به، وفرح بذلك؛ لزهده في الرئاسة، وعدم محبته في التقدم، ولا يتقدم على من هو أقدم منه في الطريق، أو أقرب إلى قلب الشيخ إلا بعد الاذن من، ومن فتح على نفسه باب حب التقدم فقد غش نفسه، فإن حب الرئاسة داء عضال ، فينبغي للمريد أن يتوقى من كل أمر فيه رئاسة؛ كما يتوقى في أكل الطعام المسموم، قال بعض العارفين: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة.

ومن وصايا سيدي أحمد الرفاعي -قدس الله سره- لمريده: من تمشيخ عليكم فتلمذوا له فإن مدَّ لكم يده لتقبّلوها فقبّلوا رجله، ومن تقدم عليكم في البداية فقدموه، ولا تنازعوا فتقفوا عن السير، وكونوا آخر شعرة في الذنب، ولا تكونوا رأسًا، فإن الضربة أول ما تقع على الرأس.

قال يعقوب خادمه ﷺ: نظر سيدي أحمد ﷺ يومًا إلى النخلة، فقال لي: يا يعقوب انظر إلى هذه النخلة لما رفعت رأسها جعل الله تعالى ثقل حملها عليها، ولو حملت مهما حملت، وانظر إلى شجرة اليقطين لما وضعت نفسها، وألقت خدها على الأرض جعل الله ثقل حملها على غيرها، ولو حملت مهما حملت لا تحس بها، انتهى.

فالتواضع من أشرف الخصال، وهو نعمة التي لا يحسد عليها، وفي الخبر: «من تواضع لله رفعه الله»[1] فمن يضع نفسه وأراد أن يرقيها منازل الأخيار طائعًا مختارًا لا يقيم لنفسه بين البرية وزنًا، ولا يرى لها مقدارًا.

ومن كلام سيدي علي الخواص قدس الله سره: إذا كمل تعضيد العبد لم يصلح له أن يرى على نفسه أحد من المخلوقين؛ لأنه يرى الوجود لله تعالى، انتهى.

وقوله: إذا كمل تعضيد العبد؛ أي: تشديده على نفسه، وعدم رضاه لها بالدون من المقام.

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (٦/ ٢٧٦)، وأبو نعيم في «الحلية» (٧/ ١٢٩).

ومنهم: من يكون رأس ماله الذل والانكسار، والتدبر والاعتبار، فإن مقام العبودية يقضي بالتذلل للسيد القهار، وفيه تمحى سطور الحظوظ من قرطاس النفوس، فلا يبالي صاحب هذا المقام طاب المطعم أم لا، ولان الملبس أم خشن، فإنه لا يلتفت إلا لعمار باطنه الذي عليه المداد لما لا يجدي له نفعًا في تلك الدار.

وأخبرني شيخنا المرحوم أن شيخه الشيخ علي السيرجاني الأحمدي كان قد أخذ عنه قبل شيخه الشيخ مصطفى أفندي أرسل خلفه وكان قد غسل ميزره فلم يذهب حتى نشف ولفه، وذهب فسأله عن تأخره فأخبره بغسل الميزر، فقال: بارك الله، هكذا تكون أحوال المريدين الصادقين؟ يمنعهم غسل ميزرهم عن المجيء لشيخهم؛ خوفًا من استنقاص الناس لهم.

قال الشيخ ﷺ: فمن ذلك اليوم لا أعتني بزينة الظاهر، لكن من أُقيم في منصب الإرشاد ينبغي له ألا يظهر للخلق إلا بما يعظمه في عيونهم؛ لئلا يستنقصوه أتباعه، فلا يفلحون على يدي، انتهى.

ومنها: أن يخاف حال لبسها من المكر الإلهي، فإن الحق سبحانه وتعالى قد يكرم بعض العبيد بما ليس له أهلاً؛ مكرًا منه به؛ واستدراجًا من حيث لا يشعر فليستعذ بالله من مكره ولا يأمن مكره فإنه ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَـٰسِرُونَ﴾ [الأعراف:٩٩].

فكم من عبد أكرمه الله تعالى بكرامات لا تحصر ثم سلبه لما أمن مكره، حتى كأنه لم يكن منها في شيء، والكرامات هي أول درجات الولاية، جعلها الله تعالى تقويةً للضعيف، ورفع همه للقوي، وهي حيض الرجال؛ أي: فإن الرجال تفر منها، وتهرب عنها، ويتطهرون من الوقوف معها؛ فإن الواقف معها محجوب بها عما فوقها، فيكون قد وقف في أول درجة من درجات الولاية، وما تخطاها، وبظهورها على العبد تقبل عليه الخلق، وإقبال الخلق على العارف سم قاتل، فكيف بمن هو في مبادئ مقامات المعرفة؟ وما دام المريد لم يفطم عن ارتضاع ألبان الإرشاد لا يليق به صحبة العباد، إلا إذا أذن له الحق على لسان شيخه إذنًا صريحًا بالنصح، والدعوة لطريق الرشاد، فهناك يكون قد خرج عن حظه، وبقي برعاية مولاه ولحظه.

وقد امتنع كثير من أهل الله تعالى عن التقدم لهذا المقام بعد الإذن الصريح العام؛ منهم الإمام الهمام أبو العباس المرسي -قدس الله سره العزيز- فإنه قال: ما جلست للناس حتى هددت بالسلب، وكأبي السعود ابن شبل، وغيرهما مما لا يحصون لما يعلمون في ذلك

من الآفات الكثيرة، فزهدوا فيما هم به أحق من غيرهم، مع أن أحدهم كان ممن لا تشغله مشاهدة الخلق عن شهود الحق ميراثًا محمديًا، فليحذر المريد من الاغترار إذا رأى نعم الله متوالية مترادفة عليه، فإن هذا انقطاع وحجاب وطرد عن الباب، وقد قلت سابقا:

إنْ لَمْ تكُنْ تَشْهَد لحيِّ سُعَادِ ... لا تَنْزِلَنَّ مَنازَلَ الآسَادِ

أوْ إنْ تكُنْ سكْرانُ مِنْ خَمْرِ الشَّرَبِ ... إيَّاكَ أنْ تَدْنو لِأرضِ الْوَادِي

فَلَئِنْ دَنُوْتَ أصَبْتَ مِنْ سادَةٍ ... وطُرِدْتَ عَنْ ذاكَ الْمُقامُ النَّادِي

فَإذَا أرَدْتَ فَخُذْ إمَامَكَ سَيِّدًا ... يحْمِيكَ مِن طَرْدٍ ومِنْ إبْعادِ

من بعد سر بفناء ظل ركابه ... وَاعْرَفْ لَهُ حَقّ الْمُقَامِ الْبَادِي

إيَّاكَ أنْ تَصْعَدَ بِلَا دَرَجٍ فَإنْ ... تَرْقَى هَلَكْتَ وَلَمْ تَنَلِ الْمُرَادِ

أوْ أنْ تَسِيرَ بِغَيْرِ مَعْرِفَةٍ بِأرْضِ ... الْغُوْرِ أرْضُ ذَوِي الْمُكَانِ الشَّادِ

هَذِي عَرُوْسُ ابْنُ مَنْ تُجْلَى لَهُ ... هَذِي الْمُلِيْحَةُ ابْنُ مَنْ بِكَ صَادِي

إيَّاكَ دَعْوَى الْوَصْلِ قَبْلَ وَصَلِهَا ... فَإذَا فَعَلْتَ فُضِحْتَ فِي الْأشْهَادِ

فالْزَمْ هُنَا حَيِّ السُّكُوْنَ مُيَمِّمًا ... أرْضَ الْخَفَاءِ وَمَنْزِلَ الْأفْرَادِ

ومنها: ألا يتغير من شيخه إذا أمره بنزعها بالهفوة صدرت منه، أو لأمر اقتضاه رأي الشيخ، بل يبادر لامتثال أمر الشيخ عن طيب نفس، وانشراح صدر، وليرجع على نفسه بالملامة والمذمة، ولا يلتفت لخاطر نفساني، أو وسواس شيطاني، وليجتهد في إصلاح حاله، وسد ثغر اعتلاله، فإن تغير من ذلك دل على أنه صاحب حظ، وعلل نفسانية، وليس هذا شأن من نصح نفسه، بل شأنهم ذبح النفوس بسيوف المخالفة، وإتعابها بالجد والكد لكي تريحه آخرًا، فإن التعب لا يزول ما دام العبد في هذه الدار، كما، قال ﷺ: «لا راحة للمؤمن دون لقاء ربه»[1]؛ لكنه إذا أثخن نفسه جراحًا، وكان ذا جد لم يكن مزاحًا حتى تألف نفسه ذلك فتهون الصعاب، وينفتح لها في مراقي العلا أعظم باب، فيستريح صاحبها للترويح، ويبكي على ضياع الأنفاس ويصيح، ويرى كل فعل من الحبيب مليح،

---

(١) رواه ابن أبي عاصم في «الزهد» (ص١٥٦)، وذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٢٢٥).

ويجود بنفسه في طلب الجمال الباهر الصريح، كما سمح الخليل بوالده الذبيح، فلا يجد مشقة للعناء، بل يراه هو المراد والمنى.

وأنشد سيدي عمر بن الفارض قدس الله سره العزيز:

فنَفْسِيَ كانَتْ قَبْلُ لَوَّامَةً مَتَى أُطِعْهَا عَصَتْ أو أَعْصِ عنها مُطِيْعَتِي

فأَوْرَدْتُهَا ما المَوْتُ أَيْسَرُ بَعْضِهِ وأَتْعَبْتُها كَيْما تكونَ مُرِيْحَتِي

فَعَادَتْ وَمَهْمَا حُمِّلَتْهُ تَحَمَّلَتْهُ مِنِّي وإنْ خفَّفْتُ عَنْهَا تَأَذَّتِ

وليحذر المريد في ذلك الحال أن يفارق الأعتاب، أو أن يلوي عنانه عن الأبواب؛ فيمقت وتخسر صفقته، ويُكتب في ديوان الخاسرين، فإن من طرده قلب شيخ لا يفلح أبدًا.

وكان أبو عثمان الحيري يقول: من آداب المريد الصادق: إذا طرده شيخه من مجلسه ألا تنقص حرمته عنده، قال: ولقد طردني شيخي مرة وأنا شاب، فقمت، ولم أوله ظهري، وانصرفت إلى وادي ووجهي إلى وجهه حتى غبت عنه، ثم جعلت على نفسي أني أحفر على بابه حفرة لا أخرج منها إلا لأمره، فلما رآني كذلك أدناني، وجعلني من خواص أصحابه، انتهى.

وليس للشيخ أن يأخذها بغير رضاءٍ منه، وبغير ثمنها، فإنه يكون قد غصبها منه، وذلك حرام ممنوع فعله بالإجماع، فإن الصوفية لا يفعلون قط ما يخالف ظاهر كتاب ولا سنة.

وللشيخ إذا أراه قد خرج عن سياج الطريق أن يأمره بقلعها عن رأسه، فإن امتثل، وكان مطيعًا أمره في ذلك، ولو لم يعلم لذلك سببًا كان، وإلا فليقرأ الشيخ الفاتحة، ويتوجه إلى الله تعالى أن يلقي في قلبه قلعها، ويشهد الشيخ إخوانه إنه قد أخذ كسوة فلان، ولو لبسها.

وأهل الطريق لهم غَيرة وحمية على طريقتهم، فلابدَّ أن يرفضوا ذلك المريد المخالف لشروط الطريق عن طريقهم، وإذا كان ممقوت أهل الطريق، وتزيًّا بزيهم، ماذا يفيده التزي؟ فليس للمريد أن يخالف أمر شيخه في أمر ما، ومن خالف أمره فقد نقض عهد الصحبة معه، والكسوة هي كسوة الباطن، والظاهرة أمارة عليها، فمن لم يكن مكسيًّا في باطنه لا يجدي له لباس الظاهر نفعًا.

ولقد أخبرني بعض الإخوان الصادقين أن سيدي محمد المزطاري الشاذلي - قدس الله روحه وأدام ترقيه وفتوحه- سأل بحضوره مريدًا له من أبناء الشام، وقال: يا محمد لما لا تلبس لك جبة؟ فقال: يا سيدي مرادي أن تلبسني جبة الباطن، فقال له: ما سألني هذا السؤال إلا أنت .

ومنها: أن يلبسها الأستاذ لمريده في المقام الرابع فإنه أول درجات الكمال، وإذا وقع الإذن له قبله، فله أن يلبسها إذا رأى المريد قابلاً للكمال، طالبًا مطالب الجمال، سريع الانعطاف كامل الأوصاف، صادقًا في الطلب، سلك طريق الأدب؛ كما أنه قد يرتقي المريد عن المقام الرابع، ولا يرى الشيخ إلباسه خرقة الفقر المقصود في سيره، فتعطيه الأسماء ما في قوتها، ولا استعداد عنده لقبول إمدادها، فلا يتأهل لها، لكن ينبغي للشيخ أنه متى رأى فيه بعد الأذن نوع استعداد ألا يمتنع من إلباسه، فإنها كالحرز على المريد .

وأخبرني الشيخ علي أفندي خليفة الشيخ محمد خليفة سيدي علي أفندي قره باش - قدس الله سره- أن إلباس الكسوة للمريد يحفظه من سطوات الغير، وهي ككتابة السلطان اسمه على سكته، انتهى.

ومما ينقل عن سيدي عبد القادر الجيلاني -قدس الله سره- أن بعض الجان أذى أحد تلامذته فاحضره، واقتص منه، ثم أخذ العهد على كبرائهم أنهم لا يؤذون أحد ممن ينتسب إليه، فطلبوا منه أن يجعل لجماعته علامة يتميزون بها عن غيرهم، فجعل لهم تاجًا صغيرًا يضعونه فوق رءوسهم.

ونقل مثل هذا عن أحد رجال السلسلة، وهو الشيخ شعبان أفندي القسطموني - قدس الله سره- إنه أخذ العهد عليهم ألا يؤذوا أحد من أهل طريقه، فإياك أيها المريد أن تنظر لنفسك بعين التعظيم إذا رأيت لك سيرًا حسنًا، بل دم على شهود النقص في أحوالك، وأفعالك، وأقولك، ولا تركن إليها، ولو رأيتها قد سلكت بك أحسن المسالك، فإن السلف الصالح قد درجوا على ذلك مع أنهم كانوا أكثر أعمالاً، وأحسن أحوالاً، وأخلص لله أقوالاً، ومع تخلصهم مع رعونات نفوسهم لم يعولوا عليها ولا التقوا إليها، بل لم يكونوا يشهدون النقص إلا فيها فبهذا صفوا فصوفوا فسموا بالصوفية، ومما أنشد سيدي أبو العباس المرسي قدسنا الله بأسراره، ونور بصائرنا بلمحة من لمحات أنواره:

تَنَازَعَ النَّاسُ فِي الصُّوفِيِّ واخْتَلَفُوا ... وَكُلُّهُم قَالُوا قَوْلاً غَيْرَ مَعْرُوفِ[1]
وَلَسْتُ أَمْنَحُ هَذَا الاسْمَ غَيْرَ فَتًى ... صَافِي فَصُوفِيَ حَتَّى لُقِّبَ الصُّوفِي

وقال ابن عطاء الله السكندري في «منته»: سمعت أبا العباس يقول: الصوفي مركب من أربعة أحرف؛ الصاد، والواو، والفاء والياء؛ فالصاد: صبره وصدقه وصفاءه، والواو: وجده ووده ووفاءه، والفاء: فقده وفقره وفناءه، والياء: ياء النسبة إذا تكمل فيه ذلك، أضيف إلى حضرة مولاه، وقد سبكت هذا المعنى في أبيات وهي:

الصَّادُ فِي الصُّوفِيِّ صِدْقٌ مَعَ صَفَاءِ ... وَالصَّبْرُ فِي السَّرَاءِ وَالضَّرَاءِ
الوَاوُ وَجْدٌ ثُمَّ وِدٌّ صَافِيٌ ... وَوَفَاؤُهُ جَهْرًا بِغَيْرِ خَفَاءِ
وَالْفَاءُ فَقْدٌ ثُمَّ فَقْرٌ دَائِمٌ ... وَفَنَاؤُهُ عَنْهُ لِنَيْلِ مُنَاءِ
وَالْيَاءُ نِسْبَتُهُ لِحَضْرَةِ رَبِّهِ ... فَاعْمَلْ بِهَذَا إِنْ رُمْتَ لِلْعَلْيَاءِ

فهكذا ينبغي أن يتخلق المريد بهذه الأخلاق؛ ليكمل ذاته بما لها من الكشف والإشراف؛ وليحرق بنيران أشواقه أوهامه أكمل إحراق، فهناك يثبت قدمه، ولا يتزحزح عن شهوده، تكدر المرء أم راق.

ومنها: ألا يعتقد في نفسه إنه أرقى ممن لم يلبسها، فإن ذلك يستوجب للمريد المقت؛ لأن ازدراء الخلق يوجب الطرد عن الحق، وأما من تكلم بها وهبه مولاه وحدث بنعمه فلا بأس، فإن طرق المواهب كثيرة، وفيض الحق واسع لا يدركه دارك، فقد يهب الأدنى من المقامات في آن واحد ما يفوق بها الأعلى بدرجات عديدة، فإن الفضل لا يتوقف على جد واجتهاد، وقبول واستعداد، على حد قول القائل:

فَكَمْ مِنْ صَغِيرٍ سَاعَدَتْهُ عِنَايَةٌ ... مِنَ اللهِ فَانْقَادَتْ إِلَيْهِ الأَكَابِرُ
وَكَمْ مِنْ فَقِيرٍ أَمْسَى لَا شَيْءَ عِنْدَهُ ... فَأَصْبَحَ خَيْرُ اللهِ فِي الْبَيْتِ غَامِرُ

وأنشد بعضهم مواليا:

---

(١) منسوب لأبي الفتح البستي.

لَا تَحْتَقِرْ شَخْصًا لَوْ أَنَّهُ صَغِيرَ الحَجْمِ وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِتَبْقَى فِي مُقَامِ النَّجْمِ
وَاحْفَظْ لِسَانَكَ وَلَا تَهْجُمْ بِقَوْلِكَ هَجْمَ مَنْ يَرْجُمِ النَّاسَ لَا يَأْمَن وُقُوعَ الرَّجْمِ

قال بعض العارفين: من رأى نفسه خيرًا من كلب حارته لا يفلح أبدًا.

وقال آخر: خيرًا من فرعون فقد أظهر الكبر، فالمريد الصادق هو الذي يرى نفسه دون كل جليس، ولا يرى في الناس من هو شر منه، بل يرى أن جميع البلاء الذي يصيب أهل الأرض بسبب ذنوبه، و وخامة عيوبه، ولا ينبغي له أن يوبخ أحد بذلة صدرت منه إلا إن كان ممن قد أمر بنصح العباد، وإذا كان آمرًا فلا يشهد نقصه في حالة توبيخه، بل يشهده أنه أرقى وأعلى درجة عند الله منه، لكنه لا يرضى له بما فيه حظ منزلته عند اللهو أو عند الخلق، بل يطلب له ولكل أحد: أن يكون اكمل مقامًا منه، وأعلا حالاً، وأتم سلوكًا، وقد جاء في الحديث الشريف «لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه»[1].

قال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في شرح «اليوسفية»: وأنا أحب لأخي أكثر مما أحبه لنفسي، انتهى.

وهكذا شأن المؤمن الكامل في الإيمان، فالسعيد من لم ير لنفسه مقامًا، ولا حالاً، وترك الدعاوى الصادقة، وأخفى الأحوال الخارقة، والأنوار الفارقة، والأسرار الطارقة؛ شغلاً بمولاه، وإخفاءً لما من النعم أولاه، فإن من ولاه الحبيب، وأدناه لمنازل التقريب لا يليق به الاشتغال بغيره، كيف لا؟ وقد غمره ببره وخيره، قال العارف سيدي علي شلبي قدس الله سره:

أَقْبِلْ إِلَيْنَا مُخْلِصًا بِهَوَانَا وَاتْرُكْ سِوَانَا إِنْ أَرَدْتَ رِضَانَا
وَافْنَى لِتَبْقَى فِي المَحَبَّةِ صَادِقًا وَانْفِ الحِجَابَ بِحِبِّنَا لِتَرَانَا
وَادْخُلْ حِمَانَا تَحْتَمِي بِوِصَالِنَا نَمْنَحْكَ مِنَّا بِرَّنَا وَعَطَانَا

فمن أقبل على الحبيب، وعرج عن غيره قبله، وخصه بمدده في إقامته وسيره، والسلام.

---

(١) رواه البخاري (١/ ١٤)، ومسلم (١/ ٦٧).

ومنها: أن يلبس لباس الصفاء، وينزع لباس الجفاء، ويغير جلاس الشقاء بلباس التقي، ولا يقنع بزينة الظاهر، بل يطلب الزينة التي أخرجها الله لعباده من خزائن غيبه الباهر، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾ [الأعراف:٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِى سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ [الأعراف:٢٦].

قال القاضي: يواري سوءاتكم التي قصد الشيطان إبدائها، وتغنيكم عن خصف الورقة.

روي أن العرب كانوا يطوفون بالبيت عراة، ويقولون: لا نطوف في ثياب عصينا الله فيها فنزلت، ولعله ذكر قصة آدم مقدمه لذلك حتى نعلم أن انكشاف العورة أول سوء أصاب الإنسان من الشيطان، وإنه أغواهم في ذلك كما أغوى أباهم، وريشًا ولباسًا يتجملون به، والريش: الجمال، وقيل: مالاً، ومنه تريش الرجل إذا تمول وقرئ رياشًا وهو جمع ريش؛ كشعب وشعاب، ولباس التقوى خشية الله، وقيل: الإيمان، وقيل: السمة الأحسن، وقيل: لباس الحرب، ورفعه بالابتداء وخبره ذلك، أو خبر وذلك صفته، كأنه قال: ولباس التقوى المشار إليه، انتهى.

وقال سيدي محيي الدين -قدس الله سره- في أوائل كتاب «الخرقة»: فالضرورة من اللباس الظاهر ما يستر السوءة؛ وهو لباس التقوى من الوقاية والريش ما يزيد على ذلك مما يقع به الزينة التي أخرج لعباده من خزائن غيوبه، وجعلها خالصة للمؤمنين في الحياة الدنيا وفي القيامة، فلا يحاسبون عليها، وإذا لبسوها وتزينوا بها من غير هذه النية، ولا هذا الحضور ولبسوها فخرًا، وخيلاءً؛ فتلك زينة الحياة الدنيا، فالثوب واحد، ويختلف الحكم عليه باختلاف المقاصد، ثم أنزل في قلوب العباد الأخيار لباس التقوى، وهو خير لباس، وهو على صورة لباس الظاهر سواء، فمنه لباس ضروري يواري سوءات الباطن؛ وهو تقوى المحارم مطلقًا، ومنه ما هو مثل الريش الظاهر، وهو لباس مكارم الأخلاق مثل نوافل العبادات، فقد تحقق لباس الباطن أنه على صورة لباس الظاهر شرعًا.

وكما يختلف الظاهر بالمقاصد والنيات، كذلك يختلف لباس الباطن بالنيات

والمقاصد، ولما تقرر هذا في نفوس أهل الله، أرادوا أن يجمعوا بين اللبستين، ويتزينوا بالزينتين؛ ليجمعوا بين الحُسنين فيثابوا من الطرفين، فسبب لباس هذه الخرقة المعلومة عندهم التنبيه على ما يريدونه من لباس بواطنهم، وجعلوا هذا صحبه، وأدبًا، وأصل هذا اللباس عندما مات أُلقي في سرى أن الحق لبس قلب عبده، فإنه قال: **«ما وسعني أرض ولا سماء ووسعني قلب عبدي المؤمن»**[1]، فإن الثوب وسع لابسه؛ فظهر الجمع بين اللبستين من زمان الشبلي، وابن خفيف... إلى هلم جرا، فجرينا على مذهبهم في ذلك فلبسناها من أيدي مشايخ سادات بعد أن صحبناهم، وتأدبنا بأدبهم؛ ليصح اللباس ظاهرًا وباطنًا.

ثم قال بعد ذكر ما تقدم نقله عنه في «فتوحاته» مما يؤدي معناه: فلما قصرت همم الناس عن مثل ما ذكرناه رجعوا إلى منزلة العامة، لكنهم شرطوا فيها شروطًا، وشرط الخرقة، المعروفة صورة ما أظهرها الحق من ستر السوءات، فيستر سوءة الكذب بلباس الصدق، ويستر سوءة الخيانة بثوب الأمانة، والغدر بلباس الوفاء، والرياء بخرقة الإخلاص ، وسفساف الأخلاق بخرقة مكارم الأخلاق، والمذام بخرقة المحامد، وكل خلق دني بخرقة كل خلق سني، وترك الأسباب بتوحيد التجريد، والتوكل على الأكوان بالتوكل على الله، وكفر النعمة بشكر المنعم، ثم يتزين بزينة الله من ملابس الأخلاق المحمودة؛ مثل الصمت عما لا يعني، وغض البصر عما لا يحل إليه النظر، وتفقد الجوارح بالورع، وترك سوء الظن بالناس، وتصفح ما مضي أو ما مضت به الأيام من أفعالك، وما تسطر الكتبة الكرام عليك، والقناعة بيسير الرزق، وتفقد أخلاق النفس، وتعاهد الاستغفار، وقراءة القرآن، والوقوف مع الآداب النبوية، وتعرف أخلاق الصالحين، والمناقشة في الدين، وصلة الرحم، وتعاهد الجيران بالرفق، وبذل العرض.

قال رسول الله ﷺ **«ألا يستطيع أحدكم أن يكون كأبي ضمضم كان إذا أصبح يقول اللهم إني تصدقت بعرضي على عبادك»**[2] وسخاء النفس؛ وهو أن تبذلها في قضاء حوائج الخلق، واصطناع المعروف إلى الصديق والعدو، والتواضع، واحتمال الأذى، والتغافل عن

---

(١) ذكره المناوي (٢/ ٤٩٦)، والعجلوني (٢/ ١٢٩).

(٢) رواه أبو داود (٤/ ٢٧٢)، وعبد الرزاق في «مصنفه» (٩/ ٧٧).

مذلة الإخوان، وترك مجالسة الغافلين إلا أن تذكرهم، أو تذكر الله فيهم، والكف عن الخوض في الأعراض، وفي آيات الله، وترك الطعن على المذنبين من أمة محمد ﷺ، وترك الغضب إلا في انتهاك محارم الله، وترك الحقد والغل من الصدر، والصفح عن المسيء؛ وهو ألا تغضب لنفسك، وأقاله عثرة أهل المروءة ذوي الهيئات، والإبقاء على أهل الستر، وتعظيم العلماء، وأهل الدين، وإكرام ذي الشيبة، وإكرام كريم القوم كان من كان؛ مسلم أو كافر، وكل ذلك على الحد المشروع مما يجوز لكل أن تكرم به ذلك، وحسن الشخص الأدب مع الله، ومع كل أحد من حي أو ميت، وحاضر وغائب، ورد الغيبة عن عرض المسلم.

وإياك وكثرة الكلام والتصنع والتشدق، فإن كثرة الكلام يؤدي إلى سقطة، وتوقير الكبير، والرفق بالضعيف، وإفشاء السلام، والتحبب إلى الناس على الحد المشروع، ولا تكن لعّانًا، ولا طعّانًا، ولا عيّابًا، ولا سخّابًا، ولا تجزي أحدًا بالسيئة إلا إحسانًا، والنصيحة لله، ولرسوله، ولأئمة المسلمين، وعامتهم، ولا تنتظر الدوائر بأحد، ولا تسب أحد من عباد الله على التعيين من حي ولا ميت، فإن الحي لا يعرف إن كان كافرًا بما يختم له، وإن كان مؤمنًا بم يختم له.

ولا تعبر أحدًا من أهل الشهوات بشهواتهم، ولا ترد الرئاسة على أحد، ولا توطأ عقبك بخدمة من أمرك، وإياك أن تترك الناس يقولون في إذنك بنقل ما يسرك عنك، وعن غيرك، ولتحب المؤمنين كلهم؛ مسيئهم إليك ومحسنهم؛ لحبهم الله ورسوله ولا تبغضهم لبغضهم إياك، أو من كان من أهل الله ورسوله ﷺ.

فبهذا أوصاني رسول الله ﷺ في المنام، وقال لي: لمَ أبغضت فلانًا؟ فقلت له: لبغضه وطعنه في شيخي، فقال لي ﷺ: ألست تعلم أنه يحب الله ويحبني؟ قلت له: بلى، قال؟ فلمَّ لا تحبه بحبه إياي وأبغضته؟ فقلت: يا رسول الله من الساعة فما أحسنك من معلم، لقد نبهتني عن أمر كنت عن مثله غافلاً، ولا تفرح بما ينشر في العامة من ذكرك بما يحمد، وإن كنت عليه فإنك لا تدري هل يبقى عليك، أو يسلب عنك؟

ولا تتميز على المؤمنين بخلق غريب محمود يعرف منك إلا إن كنت ممن يقتدي به، ولا تظهر الخشوع في ظاهرك بجمع أكتافك وأطرافك إلى الأرض إلا أن يكون في باطنك

كذلك، ولا ترد الكثير من الدنيا، ولا تبال بجهل من جهل قدرك؛ بل لا ينبغي أن يكون لنفسك عندك قدر، ولا ترغب لإنصات الناس لكلامك، ولا تحوج للجواب مما لا يسرك في حقك، واصبر نفسك للحق مع الحق﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ۞ وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ﴾ [الكهف: ٢٨-٢٩]، وأنصف من نفسك، ولا تطلب الإنصاف من أحد في حقك، وسلم على المسلمين ابتداءً، ورد السلام على من سلم عليك حتى يسمع، وإياك الطعن على الأغنياء، وعلى أبناء الدنيا إذا تنافسوا فيها، ولا تطمع فيما في أيديهم، وادع للملوك ولاة الأمر، ولا تدع عليهم وإن جاروا، وجاهد نفسك وهواك فإنهما أكبر أعدائك.

ولا تكثر المجالسة في الأسواق، ولا المشي فيها، وكف ضررك عن أئمة الدين، واترك الشهادة على أهل القبلة بما يؤدي عند فهم السامع إلى الخروج عنها، والإمساك عن الخوض فيما شجر بين الصحابة، بل عن الأموات، فإنهم قد أفضوا إلى ما قدموا، واترك المراء في القضاء والقدر، واترك مجالسة أهل الأهواء والبدع القادحة في الدين، والملك، وعليك بإخراج الحرص والحسد والعجب من القلب، وأن تصرف هذه الصفات في غير مواطنها المشروعة.

وعليك بالدخول في الجمعة والجماعة فإن الذئب لا يأكل إلا القاصية، وإياك والعجلة في أمورك إلا في خمس:

الصلاة لأول وقتها، والحج عند وجود الاستطاعة، وتقديم الطعام للضعيف قبل الكلام، وتجهيز الميت، وتجهيز البكر إذا أدركت.

وبذل المجهود في نصح العباد من مسلم وكافر ومشرك بعلم وسياسة، وقطع أسباب الغفلة، والمحافظة على إقامة الصلوات، وتحسين نشاطها، والقيام على النفس بالمحاسبة، والخروج من الجهل بطلب العلم، وأن تستوصي بطالب العلم خيرًا، والندم في التفريط في استعمال الخير، والتجافي عن الشهوات، ودار الغرور، واعتقاد مقت النفس، وإن النفس في اصطلاحنا: كل خاطر مذموم.

ورد الظالم، وإصلاح المطعم، والسعي في إصلاح ذات البين، وإسقاط الرتب، والحذر الدائم، والخشية والهم في الله، والحب والبغض وموالاة الصالحين، وكثرة البكاء والتضرع إلى الله، والابتهال ليلاً ونهارًا، والهروب من طريق الراحات، والتذلل في كل حال إلى الله تعالى، ومداومة الكد، وتنغيص العيش بالفكر فيما يتعلق عليك من شكر المنعم فيما أنعم به عليك، والقصد إلى الله تعالى في كل حال منك، والتعاون على البر والتقوى ونصرة المظلوم، وإجابة الصارخ وإغاثة الملهوف، وتفريج الكرب عن المكروب، وصوم النهار، وقيام الليل، وإن كان بالتهجد فهو أولى، وذكر الموت وتعاهد زيارة القبور، والصلاة على الجنائز واتباعها، ومسح رأس اليتيم، وعيادة المريض، وبذل الصدقات، ومحبة أهل الخير، ودوام الذكر، والمراقبة ومحاسبة النفس على الأفعال الظاهرة والباطنة، والأنس بكلام الله، وأخذ الحكمة من كلام كل متكلم، بل من نظرك في كل منظور، والصبر على أحكام الله، والتعرض لكل شيء مقرب إلى الله، واستفراغ الطاقة في محاب الله ومراضيه، والرضا بالقضاء لا بكل مقضي، بل بالقضاء به، وتلقي ما يرد من الله تعالى بالفرح ومولاة الحق بأن يكون معه فهو مع عباده أينما كانوا، والتبرؤ من الباطل، والصبر في مواطن الامتحان، والزهد في الحلال، والاشتغال بالهم في الوقت، وطلب الجنة بالشوق إليها؛ لكونها محل دوية الحق تعالى، ومجالسة أهل البلايا بالاعتبار، ومحادثة المساكين والقعود معهم في محافل فقرهم، ومعاونة من يطلب حاجة بإعانته، وسلامة الصدر، والدعاء للمؤمنين بظهر الغيب، وخدمة الفقراء، وأن تكون مع الناس على نفسك، فإنك إذا كنت عليها فإنك لها، والسرور بصلاح الأمة، والغم بفسادها، وتقديم من قدم الله تعالى ورسوله، وتأخير من أخر الله تعالى ورسوله فيما قدمه وفيما أخره.

فإذا ألبست هذه الملابس صلح لك أن تقعد في صدور المجالس عند الله تعالى، وتكون من أهل الصفوف الأول، فهذه ملابس أهل التقوى الذي هو خير لباس فاجتهد أن تكون هذه ملابسك، أو أكثرها فعليه الجماعة، وعليها ألبس شقيق الباغي حاتم الأصم، وأمثاله، فعلى مثل هذه الأخلاق درجوا في لباسهم وحليتهم وعليها لبست، وألبست من ألبسته لله بجد على ذلك، ثم ذكر سنده في الخرقة من طرق عديدة، انتهى.

ومنها: أن يصون زيه عن كل ما يشين ظاهرًا أو باطنًا، فإن من دنس لباسه فليس أهلاً لذلك اللباس؛ إذ لو كان من أهله لحفظه وصانه، ولعمل في كل أمر زانه؛ لئلا يكون ممن أخر ميزانه، فإن حلية الظاهر عنوان حلية الباطن.

يحكى أن الإسكندر رأى رجلاً عليه ثياب حسنة، وهو يتكلم بكلام وضيع قبيح، فقال له: يا هذا إما أن تتكلم بمثل قدر ثيابك، أو تلبس ثيابًا على قدر كلامك، ولبعضهم من أبيات:

فَخِرْقَـةُ الفَقْـرِ إنْ لَمْ يُـوفِ لَابِسُهَا ... بِـشَرْطِهَا نَبَذَتْـهُ كَاسِـيًا بِعَـرَاءِ

هَـذَا إلَى مَـا هَـوَ إلَّا حَـرِيٌّ بِكُـلِّ وَلِيٍّ ... إذَا اقْتَفَـى طُـرُقَ الأَقْـوَامِ وَالأَثْـرَاءِ

قال الله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ [المدثر:٤]، قال القاضي: من النجاسات، فإن التطهير واجب في الصلاة محبوب في غيرها، وذلك بغسلها وحفظها عن النجاسة؛ كتقصيرها، وهو أول ما أمر به من رفض العادات المذمومة، أو طهر نفسك من الأخلاق الذميمة، والأفعال الدنيئة، فيكون أمر باستكمال القوة العملية بعد أمره باستكمال القوة النظرية، والدعاء إليه، أو فطهر دثار النبوة عما يدنسه من الحقد والضجر وقلة الصبر، انتهى.

فمن طهر ثوب قلبه لم يحجب عن شهود ربه لا يرى ربه إلا من يموت، ومن يموت لا يراه، فإن الرؤية تستدعي وجود للرائي، ولا بقاء للعبد عند تجلي الرب.

وهذا سر قوله: ﴿لَن تَرَىٰنِي﴾ [الأعراف:١٤٣] وقلت:

الحَـقُّ بَـادٍ وَلَا سِـوَاهُ ... فَمَـنْ رَآهُ بِـهِ رَآهُ

إذْ غَـيْرُهِ هَالِـكٌ وَفَـانٍ ... بِقَـاعِ فِيـهِ إذْ طَـوَاهُ

فطهر أيها المريد للظاهر والباطن من أثوابك، ولا تقنع بأحدهما في ذهابك وإيابك فمن داوم على الطهارة وسع عليه في رزقه، وتحقق بالرتق في فتقه، والفتق في رتقه، وكسي ثوب النضارة، ولا يكسى هذا الثوب إلا من شن على أعدائه الغارة، واختطف كأس صهباء الحب لما الساقي أداره، وسار مقتفيًا أثر القوم بأذان سمعية، وأعين نظارة، وسألت عين الرضا جدًا، وله أنهاره واستغيث رياض قلبه؛ لطربه أطياره، فرجعت برخيم صوتها؛ فاستنزلت من أوج الملكوت أبكاره، وأعلت في حضرة القرب مناره، فكم من لابس عار وزاد التزي أو زاره، وكم عار لابس استسقى له خمر الوصل خماره، وقلت:

فَكَمْ مِنْ لَابِسِ الزِّيِّ عَارِ ... وَكَمْ عَارٍ يَزِيْنُ كُلَّ زِيِّ

وكم من لابس للخيش ميت ... وديباج كسي يوما لحي

فمن تعرى عن ملابس الرداء، واكتسى أثواب الهدى فاهتدى؛ فهو المكسي العريان والمرتوي الظمآن، وقلت:

يا أيها المُكتسِي العُريانَ أنتَ فتَى ... جُمِعتَ للضدِّ فابشرْ إنَّكَ الرجلُ

شأنُ المحققِ جمعُ الفرقِ بشهدِه ... والخوفُ يصحبُهُ مادامَ والوجلُ

روي البزار عن عائشة رضي الله عنها مرفوعًا: «أول من يكسى من الخلائق إبراهيم قيل؛ لأنه عري للإلقاء في النار فصبر واحتسب، وما شكا؛ فكان جزاؤه أن يكون أول لابس، وبعده يكسى نبينا حلة لا يقوم لها شيء هي أعظم من كسوة إبراهيم ﷺ؛ لينجبر التأخير بالنفاسة فيها»[1].

واعلم أن أول كسوة كسي بها سمع الروح: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] فما لذلها سماع شيء بعد ذاك السماع، ومنه صارت تحن إلى السماع، ويطربها الاستماع؛ فبهذا تهيم شوقًا وتذوب توقًا، وما العجب من روح بسماع خطاب محبوبها تموت بل من ثباتها، ولا عجب إذ به الثبات، ودرك ما يفوت، فمن كسي ثوب الوجود بعدما كان عدم، وحلي بحلية الشهود، وانمحت أوصاف حدثه بتجلي صفات القدم لا ينبغي له أن ينقل عن باب مولاه قدم، ويشكره على ما أولاه وما أسداه من استخدام الأكوان له كالخدم، وليؤب إليه به بإقلاع وندم، ويشهد أن نسبة الأفعال إليه فضلا، فإن ركن الحقيقة لركن المجازي هدم، ومن كان من أهل الشهود الدائم الذاتي الذي لا حجاب بعده، ولا مستقر للكمال دونه، كان صاحب اللباس الفاخر، ووحيد الدهر في المآثر والمفاخر، وهذه الحلة التي دونها كل حلة، فمن كسي بها الحبيب في منزل القرب أحله، وله شرب القهوة القديمة، وتناول قدحها أحله، ويقينًا أن من شرب كأسها يرى من كل علة، ومن كل داء علة.

وقلت:

قَدْ لَبِسْنَا مِنَ الجَمَالِ بُرُوْدَا ... وَمُنِحْنَا مِنَ الجَمِيْلِ شُهُوْدَا

---

(١) رواه البخاري (٤/ ١٧٦٦)، والترمذي (٥/ ٣٢١).

وَكُسِينَا مِنَ الشُّهُوْدِ ثِيَابَا فَوْقِنَا الأَسْوَاءَ فَضْلاً وَجُوْدَا

وَشَرِبْنَا كَأْسًا قَدِيمًا لَقَدْ أَسْكَرَ قِدَمًا آبَائَنَا وَالجُدُوْدَ

يَا لَهُ مُسْكِرٍ بِهِ سَكِرَ قَوْمٌ مِنْ وِثَالٍ لَا يَعْرِفُوْنَ الصُّدُوْدَا

بِعَقِيقِ الدُّمُوْعِ مِنْ جِفْنِ عَيْنِي يَا خَلِيْلِي لِلْوِصَالِ فَعُوْدَا

وَلِمَنْ قَدْ أَزْمَنْهُ سَهْمًا سَلِيمًا فَقَدْ أتْلَفَ الفُؤَادُ فَعُوْدَا

ذَاتُ وَجْهٍ إِلَيْهِ قَدْ سَجَدَ إِلَيْهِ رَمْيًا وَكَمْ أَقَامَ لَحُوْدَا

وَبِهِ كَمْ تَمَلَّكَتْ مِنْ مَلِيكٍ وَاسْتَذَلَّتْ بِحُسْنِ ذَاكَ الأَسْوَدَا

وَقَضَتْ بِالفَنَاءِ عَلَيْهِمُ فَمَاتُوا وَهِيَ تَقْتَضِي وَلَا تُرِيدُ شُهُوْدَا

عَشِقُوْهَا مِنْ بَعْدِ مَا عَشِقَتْهُمُ فَالأَنْوَارُ بِهَا قُلُوْبًا جُلُوْدَا

ظَهَرَتْ تَنْجَلِي بِغَيْرِ ظُهُوْرٍ فَأَرَتْنَا بِيْضًا تَلُوْحُ وَسُوْدَا

وَأَرَتْنَا السُّوى وَلَيْسَ سِوَاهَا إِذ انْمَحَتْ مِنْهُم سَلِيْمِي الوَجُوْدَا

وَصَلَاةٌ عَلَى النَّبِيِّ تُقَدَّا وَصِحَابٌ مَا حَرَّكَ الشَّادِي عُوْدَاس

وكل من لم يصن لباس فؤاده عن شهود غير سعادة فما بلغ مراده من مراده، فكم من لابس لباس الأكياس وليس بكيس، والكيس هو من دان نفسه، وعمل لما بعد الموت، فحينئذ هو عار غير مكتسي، إذا لم يحفظ شرط اللباس، بل نسي كثير من أهل الجذب يتعرى عن الملابس بظاهره، ويدرع بملابس المعرفة بباطنه، فمن كان ممن رفع حجابه، وزال نقابه رآه مكتسيا غير عاري، والمحجوب يراه عريانًا على خلاف الشرع جاري

نقل سيدي عبد الوهاب الشعراني ـ قدس الله سره ـ أنه سأل بعض المجاذيب عن عدم ستر عورته؟ فقال: نحن لا يُرى لنا عورة إلا المحجوب، انتهى.

قال لي أخونا الشيخ عبد الكريم القطان جعل الله جنان النعيم مأواه مع من فيها قطان: قلت لوالدي الشيخ علي المبيض – رحمه الله تعالى: يا والدي هذا بكار المجذوب، مبدي عورته لا يتستر، يجوز هذا يا والدي شرعا؟ فقال لي بعد ما أعدت عليه ذلك، وقد عربد ودردب: أما تجلى كل قبر مشغول ببلائه، يا ولدي هذا والله عليه سبع دروع، ولا يمشي إلا وبيده السلاح، وهو شاويش الرجال والجماعة [أمامه] انتهى.

وقد تقدم في عبارة سيدي إبراهيم الإفصاح عن سبب عدم لبسهم الثياب، وقد بلغني أن شيخنا الملا إلياس الكردي ـ نفعنا الله به ـ قصد زيارة الشيخ العارف بالله أحمد ابن كسبة الحلبي ـ رحمه الله تعالى ـ ومعه تلميذ له، فشكي ذلك التلميذ للشيخ أحمد عن مجذوب بادي العورة، فسأل الملا فقال له: أنت رأيت عورته؟ فقال لا، بل شجاه، فأخذ يعنفه على ذلك ويقول له: هذا شيخك مارًا فلم لا تقتدي به ؟

ورد في الخبر: «تخلقوا بأخلاق الله»[1] وهي التي صرحت بها أسماؤه، فمن أحصاها على وجه الاتصاف بها، والظهور بحقائقها، والفوز بنتائجها؛ كان من أهل الذي يصح اتصافهم بها، كما وصف نبيه بقوله تعالى: ﴿عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨]، ﴿وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٥١]، ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران:١٥٩]، ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ [الحاقة:٤٠] إلى أخر الأسماء فمن أحصاها؛ أي: انصبغ بها؛ فاز وجاز، وكانت له من أفخر حلة يحصل له بها الاعتزاز، قال ﷺ: «خلق الله آدم على صورته»[2]، وفي رواية: «على صورة الرحمن»[3]، والرحمن اسم من أسمائه؛ وهي التي عنها كان الظهور، والظاهر بها عاد مستور، فإنه الظاهر والباطن، فالتبس الأمر على الأشياء، وزال الحجاب عن بعضها لما كوشفت بقوله تعالى: ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]، فالظاهر مرآة الباطن، والباطن كذلك

قال سيدي محيي الدين في «فتوحاته»: فالظاهر له التنوع، والباطن له الثبوت، فالباطن الحق عين ظاهر الإنسان، والظاهر الحق عين باطن الإنسان؛ فهو كالمرآة المعهودة إذا رفعت يمينك عند النظر إلى صورتك فيها رفعت الصورة يسارها، فيمينك شمالها، وشمالك يمينها، فظاهرك أيها المخلوق على صورة اسمه سبحانه الباطن، وباطنك على صورة اسمه سبحانه الظاهر، ولهذا ينكر في التجلي، ويعرف ويوصف بالتحول، فأنت مقلوبه، فأنت قلبه وهو قلبك، ﴿هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ﴾ [البقرة:١٨٧]، ما أحق هذه الآية بهذا المقام، فكما يلبسنا ملبسه، فبنا كان كما نحن به، فانتفى ما هو موجود بنا وبه، أكرم به من مشبه! وأكثر من هذا البسط في العبارة ما يكون، فإن هذا الميدان يضيق فيه الجولان جدًا، والله ولي الإعانة، انتهى.

---

(١) ذكره المناوي في «التعاريف» (١/ ٥٦٤).

(٢) رواه البخاري (٥/ ٢٢٩٩)، وابن حبان (١٤/ ٣٣)، وأبو عوانة (١/ ١٦٠).

(٣) رواه الطبراني في «الكبير» (١٢/ ٤٣٠)، وذكره الهيثمي في «الزوائد» (٢/ ٨٣١).

فمن تحقق بهذا اللباس، وبالمقابلة والانعكاس؛ كان هو الميت والحي الذي لا ظل له، ولا في وهذا هو المستحق للبس الزي؛ لأنه المكاشف بأسرار دعدومي، وقد قلت في هذا المقام من النظام:

أيُّهـا الطَّالـبُ لِـبْسَ الـزِّي هَيَّـا — نَحْـوَ لَـيْلَى وَاقْـصُدَنَ ذَاكَ الحَـيَّ
وَتَجَـرَّدْ عَنْـكَ إنْ رُمْـتَ اللِقَـاءَ — وَبِهَـا مَيْـتٌ [أقْـصِرْ] تَرْجِـعُ حَـيٌّ
لَا تَقُـلْ أنَّ لِبَـاسَ أهْـلُ الهَـوَى — هُـوَ لِـبْسُ الـصُّوفِ أو لِـبْسُ العِبِـيَّ
ذَاكَ سِرٌّ غَـامِضٌ لَمْ يَـدْرِهِ — غَـيْرُ صَـبٌّ فِي الحُمَّـى قَـدْ صَـارَ مَـيَّ
إنْ تَرِمْـهِ عَنْـكَ فَـاخْرُجْ قَاصِـدًا — مـنهجُ التحقيـقِ وأطـوِي الغـيرَ طَـيَّ
ثـمَّ جاهـدْ كَـي تـشاهدَ لا تكـنْ — قانعًـا بالقـالِ هـذا القنـعُ غـيَّ
سـلْ سـيفَ العـزمِ وأبـرِي عنـقَ مـنْ — عنـهُ يقـصيكَ وللأعـداءِ نهـيَ
واكـشفْ الأسـتارَ عـنْ وجـهِ التِـي — سـلبتْ في حـسنِ [.....] اللهـيُّ
وإذا لمْ تـنجلِي لـيْلَى عليـكَ — فـلا تـرضَى لِبـاسَ الحـيِّ زيٌّ
مـا يفيـدُ الـزِّي في الظَّـاهرِ وال — قلـبُ لم يـبرحْ أسيِّرابـشأيَّ
بـلْ ولَا يجـديكَ قـولٌ مـنْ فتًـى — ادعُ للهِ ولم تعرفْـه شيَّ
كيـف تـدعُو للحمَـى أو تـأمُرِ — النـاسَ بـالبرِّ وتنـسى يـا أُخـيَّ
مـا عـسى تُجـدِي إجـازاتُ أمـرٍ — لم يـذقْ مـن جهلِـهِ طعـمَ الهـوىَّ
لـوْ يذقْـهُ أو يكـنُ يـدرِي الـدواءَ — لم يكـنُ يقنعـهُ ترقيـةٌ وتـزيَّ
فاسْـتمعْ يـا ناصـحُ الـنفسِ فـما — هكـذَا قـد سـارَ فتيـانُ اللُّقَـيَّ
طـالعِ الأحيـاءَ ولازمْ درسَـه — وكـذَا كتـبُ سـلوكٌ وانـفِ ليَّ
وَتحـلَى فِي صـفاتِ أهـلِ الوفـاءِ — ثـمَّ فاقبـلْ نحـوَ جمَّـالِ اللـوَيَّ
وَتـأدبْ عنـدَهُ تعطَـى المنَـى — وتنـالُ القـربَ مـنْ سُـعْدَى وريَّ

وإذَا الحــــقُّ بفــــيضٍ جــــادَ لَا	تــــكُ مغـــرورٌ بهـــذَا يـــا بُنـــيّ
وكـــذَا المكـــرُ فـــلا تأمنـــهُ مـــنْ	أمـــنَ المكـــرَ فـــذا صـــبٌّ عمـــيّ
وبـــشرعِ اللهِ كـــنْ مهتـــديًا	واتبـــعْ خـــيرَ نبـــيٍّ مـــن لـــويّ
صـــلِّ يـــا ربِ عليـــهِ دائـــمًا	ثـــمَّ ســـلِّم مـــا بـــدَا نجـــمُ الحمـــيّ
وعـــلَى الآلِ وصـــحبِهِ كلَّـــمَا	حـــنَّ مـــشتاقٌ إلى لـــيلى ومـــيّ

ومنها: أن يعتقد أنه تشرف بلبسها؛ ليشكر الله تعالى على ذلك، ولا يرى نفسه أنها تأهلت لها، بل يشهد الفصل للقدير المالك، فإن التزيّ بزي العادة يوجب الكرامة لصاحبه بل الحسنى والزيادة، قال الله تعالى: ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم:٧]، والشكر هو صرف جميع ما أنعم الله تعالى به على العبد فيما خلق من أجله، ومعلوم أن خرقة القوم خلعة شريفة يخلعها الحبيب على من اختصه بالإمداد والتقريب، ومن كساه الحبيب خلعة من خلع أنعامه تأدبت معه الكبراء أدبا مع من أختصه بالكرامة.

يحكى أن بعض الصالحين رأى فيما يرى النائم أن الشيخ عبد الله بن أبي جمرة وهو جالس على كرسي، وعليه خلعة خضراء بهيبة جميلة، والأنبياء والمرسلون واقفون بين يديه، فأخبر بهذه الرؤيا بعض من لا معرفه له بمثل هذه الأمور، فلم يكشف له عن وجه تأويلها البراقع والستور، ثم إنه أخبر بها بعض العارفين فقال له: هذه الرؤيا صحيحة، وهؤلاء الأنبياء والمرسلين ـ عليهم الصلاة والسلام ـ متأدبين مع من كساه هذه الخلعة، لا معه هو، ألا ترى أن الملك إذا ألبس خلعة لبعض الناس مشى أكابر دولته ممن هو أعظم منه رتبة في ركابه؛ إكراما لمن ألبسه هذه الخلعة.

ونقل سيدي عبد الوهاب الشعراني عن شيخه سيدي علي الخواص ـ رضي الله عنهما ـ أنه كان يتواضع لأرباب المناصب، ويقبّل أيديهم وأرجلهم، ويشير إلى أن أدبه معهم هو أدبه مع من أقامهم في هذا المنصب، وكساهم هذه الخلعة، حتى نفذ أمرهم ويقول: ألا ترى أن المحتسب إذا نادى ألا يباع الشيء الفلاني إلا بكذا، ولا يقدر أحد أن يخالف ما رسمه، ولو قال أحدنا ذلك، ما عسى أن يقول لا يقبل كلامه، وأما هذا معناه، فاللباس يؤذن بزوال الالتباس، ودخول حظائر الإيناس، وبذا يصح له الانعكاس، حتى يعد من الناس وليس هو من الناس.

وقلت في المقام من النظام:

يَــا مــنْ لكــأسِ العامريــةِ حــاسِي ومشاهدٌ لقوامِهَا الميّاسِ
ومحصيهم بجمالَهَا وجلالَهَا وكمالَهَا يصبُو منَ الأنفاسِ
ولذيعُ شوقٍ لمْ يذقْ طعمَه الكرَى وصريعُ توقٍ مالَهُ من آسي
غبْ في شهودِ جمالَهَا بجمالَهَا ولمنْ تفانَا في هواهَا وآسي
قومٌ بها ذابوا جوىً وصبابةً وبها قدْ غابوا عن الإحساسِ
لبسوا دروعَ العشقِ واقتحموا الوغَى لما استقوا شمسا من الشماسِ
وتجردوا عنهم فكانَ وجودهُم محضُ الهباءِ فيا لهم من ناسِ
أنسوا وجودَهم بوجودِ وجودِه فتَّطهروا من سائرِ الأدناسِ
فالنَّاسُ هم إذا ما عداهُم حثلةٌ قذْ ولَعوا بوساوسِ الخناسِ
ليسوا كما النَّاسِ المشارِ إليهمُ بلْ هُم خيَارٌ مِنْ خيارِ النَّاسِ
قومٌ ضياءُ وجوهِهِم وقتَ الدُّجَى يبدِي الضُّحى بلْ للغزالةِ كاسِي
يا صاحبِي شمرْ ولُذْ بركابِهِم وانزعْ بهم لملابسِ الإلباسِ
غيرُ لأنفاسٍ وحلاسٍ كذا الجلاسِ كي تغدُو من الأكياسِ
وامسحْ بحلكَ في مواصلةِ المنَى ثمَّ اعتبرْ بسماحةِ الغطاسِ
واطلبْ علومًا في الصدورِ تسطرتْ لم يجرِها قلمٌ على قرطاسِ
من يدرِهَا كشفًا وذوقًا يدرِها صِينتْ عن الأغيارِ بالحراسِ
فهَي الهدَى فاطلبْ هداهَا تهتدِي وتكونُ في بحرِ الحقيقةِ راسِي
هلْ يستوِي غيُّ الفتَى برشادِه وهلْ الزجاجُ يباعُ كالألماسِ
فاثبتْ على نهجٍ لهم كِي تهتدِي ولعهدِهِم إيَّاكَ أنْ تكُ ناسِي

واشربْ بأقـداحِ الـصّفا مـن خمـرِهِم لا تخـشَ مـنْ ضربَـةٍ أو بـاسِ
لا يقنعنَّـك شربُ جـامٍ واحـدٍ بـلْ والي بـينَ الكـأسِ ثـمَّ الطَّـاسِ
وأقبـلْ إلـيهِم خاضـعًا متـذللاً تغنَـى إذا مَـا جئـتَ بـالإفلاسِ
إيَّـاكَ أنْ يلويـكَ عـنهُم عَـاذِلٌ بـلْ كُـنْ عـلى حفـظِ المـودةِ قـاسِي
ثـمَّ الـصلاةُ عـلَى النَّبـيِّ وآلِـهِ وصـحابِهِ مَـا اهتـزَّ عُـودُ الآسِ

ومنها: أن يكون صبورًا على جفاء الأجانب فضلا عن الأقارب، متزايد الأحزان كثير الأشجان، يحزن على فوات حظه من ربه أكثر من حزنه على فقد خلانه وسربه، قد راض نفسه على تحمل الأذى وكف الأذى؛ سعيًا في عمارة قلبه، وصفاء وقته، وطيب شربه، همه تصفيه الطوية، وتصحيح المقابلة السرية، يحزن على تشتت همته، وتفرق عزيمته في طلب مولاه، ولا يفرح إلا بمواصلة من بالجميل أولاه.

يحكى أن عتبة الغلام، رآه بعض السادة الأعلام وهو يزهو في مشيته، فسأله عن ذلك فقال: كيف لا أزهو وقد أصبح لي ربا وأصبحت له عبدا، فقال له: ألم تعلم أن الفرح ولو كان بالله مذموم، وقد أنشد القاضي عياض في معنى قول عتبة الغلام:

ومِمَّـا زادنِي شرفًـا وتيْهًـا وكـدتُ بأُخمُـصِي أطَـأُ الثُّريَّـا
دخـولِي تحـتَ قولِـكَ يـا عِبـادِي وأنْ صـيَّرتَ أحْمَـدَ لِي نبيَّـا

الحزن شعار الأدباء، ودثار الغرباء، هو يجعل كل حزن سهلاً، فيروق للشارب منه شربًا ونهلاً، ما فارق قلب حزن إلا وبينه وبين القرب سور ضرب، هو زكاة العقول، وبه يعود القلب بعد الصدأ مصقول.

ورد في الخبر: «**أن الله تعالى يحب كل قلب حزين**»[1]، وفي التوراة: **إذا أحب الله تعالى عبدا نصب في قلبه نائحة، وإذا أبغض الله تعالى عبدا جعل في قلبه مزمارا.**

وكان ﷺ متواصل الأحزان، دائم الفكر، قال الله تعالى في صفة يعقوب عليه السلام: ﴿وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ﴾ [يوسف:٨٤]، قال القاضي: وابيضت عيناه

---

(١) رواه البيهقي في «الشعب» (١/ ٥١٥)، وذكره الهيثمي في «الزوائد» (١٠/ ٣٠٩).

من الحزن؛ لكثرة بكائه من الحزن، كأن العين محقت سوادها، وقيل: ضعف بصره، وقيل: عمي، وقيل: من الحزن، وفيه دليل على جواز التأسف والبكاء عند التفجع، ولعل أمثال ذلك تدخل تحت التكليف، فإنه قل من يملك نفسه عند الشدائد.

ولقد بكى رسول الله ﷺ على ولده إبراهيم وقال: «القلب يجزع، والعين تدمع، ولا نقول ما يسخط الرب، وإنا عليك يا إبراهيم لمحزنون»[1] وهو كظيم مملوء من الغيظ على أولاده، ممسوك له في قلبه، ولا يظهره فعيل بمعنى مفعول كقوله مكظوم، من كظم السقاء إذا شده، واصله كظم البعير جرته، ردها في جوفه، انتهى.

روضة الحزن روضة أنيقة، وحديقته أعظم حديقة، لا تنبت إلا الأثمار الذاكية، والأزاهير الطيبة الذاكية، فيا أيها الصب الصابي، والمحب الذي حبه رابي، إن شئت أن تُكسى لباس الأشجان، وتُحلى بحلية العرفان؛ فاحتسي خمرة الأحزان، وإياك أن تخس الميزان، فإن الحزن سر من أسرار الله تعالى المصونة في سرادق غيبه المضنون به إلا على من امتنَّ عليه من خزائن جوده، يصيبه الحقير العاجز الذي دعي فأبى، المسمى بالناشز، المقهور تحت أحاكم القدرة والإرادة، المأخوذة بناصيته أما للشقاوة وأما للسعادة، الغافل عما يراد من جهله وتيهه، المفرط بتسويفه وتمويهه، كيف يقر له قرار، أو يفوز بالتجلد والاصطبار، ومنادي الرحيل يناديه: يا غافلاً بأهله وناديه، هلا تيقظت من غفلاتك، وتنبهت من رقداتك، ومولاك أجبت مناديه، فكيف لا يحزن من علم إن ثَمَّ ما لا يعلم، وفهم إن ثَمَّ ما لا يفهم، الخوف يثمر الحزن، والأول ثمرة المعرفة، والثاني يثمر الاستقامة؛ التي كلماتها ليست عن مواضعها محرفة، فمن كسي ثوب الأحزان فقد تحقق بالفرق الأول وجمعه، والجمع الثاني، والفرق الثاني.

وليس كل من أظهر التحزن يسمى بالحزين، ولا كل من تثبت وما ثبت يسمي بالرزين، ولكن من علاماته الظاهرة: كثرة الأنين، والافتقار ظاهرًا وباطناً أثر السيد الأمين، ﷺ وعلى آله وأصحابه أجمعين.

وأما علاماته الباطنة: فهي لا يعرفها إلا الذائق، ولا يشرب من شرابها الرائق إلا كل صب فائق، الحزن الذي أضناه القلق، وأصماه الوجد والأرق، مشغول بعيوب نفسه عن عيوب أبناء جنسه، لا يرى في الوجود من هو دونه، طالبًا الإمداد من كل الأجواد؛

---

(١) رواه ابن حبان (٧/ ٤١٧).

عسى أن يمدونه، غريب الحال، عزيز المثال، يترحم بإخوانه، ويترفق بخلانه؛ لكمال إيمانه ورجيح إيقانه، لا يتبع لهم عورة «**فإن من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته يوم القيامة**»[1]، يستر على إخوانه جميع معاصيهم، وبالرفق واللين بالتقوى يوصيهم، قليل الغضب، كثير الأدب، لا يكدر على إخوانه وقتا، ولا يظهر لهم عبسا ولا مقتا، إلا إن كان بجرح الحال مكلوم، فإنه غير ملوم يسير سير الأبطال لا سير البطال، ويفرح إذا الليل طال، ولا يتمنى المطال، ويبكي على قصر الليال بدمع هطال، وينشد ما أنشده لسان الحال:

يـــا ليـــلُ إنْ هتـــفَ البـــشيرُ	يعيـــدُ مـــا قـــدْ كـــانَ ســـاحرُ
وطـــوَى الحبيـــبَ بعـــادُه	عنَّـــا ودمـــعُ العـــينِ زاخـــرُ
وجـــرَتْ وقـــدْ عـــمَّ الأوا	ئـــلَ صـــيبُها بـــلْ والأواخِـــرُ
فامتـــدْ يَـــا ليـــلُ الوصـــا	لِ بحـــقِّ حُبِّـــي لَا لأخـــرُ
فوِصـــالُ مـــنْ أهـــوَاهُمُ	فخـــرٌ فهـــلْ رشـــاءٌ يفـــاخرُ

ومنها: عدم إلباسها النساء إلا من اتصفت منهم بالرجولية، وباطنها بالأخلاق المحمدية، اكتسى وذا عزيز في مثل هذا الزمان لكن قد يظهر الكمال فيمن يظهر، فكم من رجل حط لدرجة النساء؛ لما عرج عن مطالب الكمال وأساء، فرب امرأة تقوم بألف من الرجال، إذا كان الحرب سجال، ورجل جبان يخاف من خياله، ويتوهم المحال من خسافة عقله وخباله.

قال سيدي محيي الدين ـ قدس الله سره ـ في عقله المستوفي: سئل بعض البدلاء كم تكونون؟ قال: أربعون نفسًا، فقيل له: لم لا تقول رجلاً؟ فقال: قد يكون فيهم نساء، فإن الكمال يظهر فيمن يظهر، انتهى.

فالصادقون أعزة في كل زمان، وفي هذا الزمان أعز، وصدق نسائه أعز وأعز، ومعلوم أنه لا يتأهل للبس زي القوم إلا من أفطر على الشهود، وأمسك طرفه عن شهود الأغيار، فتحقق بالصوم، فإذا وقع الإذن لامرأة في لبسها، ورآها الشيخ قابلة لهذه الملابس ألبسها إذا شاء، ويأمرها برفعها أيام الحيض والنفاس؛ لئلا تكون لبستها على غير طهارة

---

(١) رواه الترمذي (٤/ ٣٧٨)، والبيهقي في «الشعب» (٧/ ١٠٨).

ظاهرة، كما أن أصل لبسها لا يكون إلا بعد طهارة باطنة، وبعض الأشياخ من يخير المريد في لبسها، ومنهم من يأمره بذلك.

وقد أخبرني بعض مريدي سيدي الشيخ عيسى الكناني الخلوتي - رحمه الله تعالى عنه- أنه كان إذا وقع الإذن الصريح لأحد من مريديه يقول له: قد وقع الإذن لك في لبس الكسوة، فإذ شئت فألبسها أو دع، وكان يوصي لابسها بتصغيرها؛ صيانةً للخرقة، وحفظًا لها،وكان في الغالب إذا نام يضعها تحت جبهته؛ تبركًا بها، انتهى.

وكأنه إذا كان الإذن من غير أمر، وأما من أمر بلبسها فليس له ترك اللبس.

وقد عد بعض العارفين لبس الزِّي شرطًا في طريق القوم؛ لأنه دليل على سلوكه، وتزيّيه باطنًا بزي أهل الله تعالى، فقال:

يقولونَ لبسُ الزِّي شرطٌ صدقتُمُوا إذا كانَ تحتَ الزِّي أسَدٌ ولا أسَدُ

إذْ لَمْ يكنْ في مضربِ السَّيفِ جوهرٌ يقُدْ فما تُغني الحمائلُ والغمدُ

أي: شرط إذا كان هناك من يصلح له، وأما إذا لم يكن فما يغني اللباس الظاهر إذا كان الباطن غير ظاهر، فإن تعمير الظاهر وتخريب الباطن دليل واضح على انقطاع صاحبه عن الآثار العلية، ووقوفه عند الأمور الدنية.

وأخبرنا شيخنا عن شيخه عن سيدي قرة باش عليّ أفندي - قدس الله سره- أنه ألبس ثلاثين ألف كسوة، وكان الكثير منهم يلبسها تحت العمامة، وكان لا يخير في إلباسها، وبلغت خلفاؤه أربعمائة وستة وأربعين، وكان شيخ شيخنا آخرهم، وهي منقبة عظيمة له، فإنه بيت سره، ويسمى: صاحب السجادة؛ أي: سجادة شيخه، وغيره الخليفة، ويلقبونه خلفا شيخه بالوالد؛ لمعرفتهم بمنزله ومكانته.

ومنها: عدم صحبته من خرج عن سياج الطريق، وعدل عن اقتفاء أثر أولئك الفريق، أو من تزندق وألحد، حين ظن أنه بشقاء شق كلماته الخارجة عن حد الشريعة وحد، كمثل بعض من ظهر في هذا الزمان من الملاحدة الخوان، المدعين ذوق مقام الإحسان، والوصول لأسرار العرفان، وادعائهم الوصول إلى الحمى، وأنهم قد ارتووا من شراب حمياه مع أنهم من شراب الإسلام والإيمان على ظمأ، فإنهم لو ذاقوا من شرابه لما عدلوا عن ظواهر خطابه، ولجهلهم ظنوا أن الشريعة ستارة على وجه الحقيقة، فلم

يتمسكوا بها كما لم يتمسكوا بالطريقة، مع أن كلام الكُمَّل من العارفين أرباب التحقيق والتدقيق، المكاشفين بحقيقة حق اليقين؛ كسيدي محيي الدين قدس الله سره، ومن نحى نحوه، وحذا حذوه، وتحقق ذوقا بكلامه، وفهم المراد من إيضاحه وإيهامه.

قال: إن الشريعة عين الحقيقة، ولا تخالف بينها بوجه، ومن ظن غيريتهما فلجهله وعدم تحقيقه، وفوات حظه من سحقه وتمزيقه، يزعمون أنهم وصلوا لكن إلى سقر، ويدعون الالتحاق لكن بصفات البقر، كما قال العارف في وصفهم:

يقولـونَ أقـوامٌ وصـلنَا إِلَى الحُمَّـى ... وبـينَ الَّـذِي قـالوا وبـينَ الحُمَّـى سَـدُّ

وقد شاع خبر هؤلاء الملاحدة، وذاع حتى امتلأت منه الأسماع، ولا راد يردهم، ولا صاد يصدهم، وبعض الأشقياء المساعدين لهم في هذا الشأن لا يتدينون بدين، ولا يتمسكون بحبل الله المتين، نسأل الله أن يجيرنا من مثل ذلك والمسلمين.

وقد رددنا على أحوالهم الشنيعة، وأقوالهم الفظيعة في الرسالة التي سميناها: «بالسيوف الحداد في أعناق أهل الزندقة والإلحاد».

وكذلك لا ينبغي له مخالطة غير أبناء جنسه؛ من أهل العقول الفاسدة، والآراء الكاسدة، الذين اشتغلوا بما لا يعنيهم عما يعنيهم، فربما زينوا له أن ما هم فيه أكمل مما هو مشتغل به، والنفس من شأنها الميل إلى ما فيه راحتها ولو كان فيه هلاكا؛ إذ هي مجبولة على المخالفة من قديم العهود السالفة، وكم قد أتلفت الصحبة من طالب، وعطفت به عن الإعلال وفي المطالب، فلا يا من على نفسه في صحبة الأغيار إلا جهول، فإن من أطلع على دسائس النفس وخدائعها ومكرها، وتسويلاتها، وتلبس الحق بالباطل، رأى أمرا مهول، وكذلك صحبة الأحداث فإنها من أضر شيء على المريد المعوق على قطع علائق التجريد، فصحبتهم كم قطعت من موصل، وسيفها كم به مجندل مقتول، من فتح على نفسه هذا الباب فقد فتح لها باب الخذلان، وسد باب المزيد وفتح باب النقصان.

قال القشيري قدس الله سره: ومن أصعب آفات المريد في هذه الطريقة صحبه الأحداث، ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ ذلك عبد أهانه الله وخذله، بل عن نفسه لله، ولو بألف ألف كرامة أهله، وهب أنه بلغ رتبة الشهداء لما في الخبر تلويح بذلك، أليس قد شغل ذلك القلب بمخلوق، وأصعب من ذلك تهوين ذلك على القلب، حتى يعد ذلك يسيرًا، وقد قال الله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ﴾ [النور:١٥].

وهذا الواسطي رحمه الله يقول: إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف، ثم اسند للفتح الموصلي أنه كان يقول: صحبت ثلاثين شيخًا كانوا يعدون من كلهم من الأبدال، أوصوني عند فراقي إياهم وقالوا: اتق معاشرة الأحداث، ومن ارتقى هذا الباب عن حالة العشق، وأشار إلى ذلك من بلاء الأرواح، وإنه لا يضر، وما قالوه من وساوس القائلين بالشاهد، وإيراد الحكايات عن الشيوخ بها كان أولى بهم إسبال الستر على هناتهم وآفاتهم، فذلك نظير الشرك، وقرائن الكفر، فليحذر المريد من مجالسة الأحداث ومخالطتهم، فإن اليسير منه فتح باب الخذلان، وبدو حال الهجران، وتعوذ بالله من قضاء السوء، انتهى.

والهنات بفتح الهاء ثم نون مخففة جمع هنة، وهي الخصلات من الشر، قال في «الصحاح» في فلان هنات؛ أي: خصلات من شر، ولا يقال ذلك في الخير، انتهى.

وهذه الآداب وإن كانت لازمة في حق كل مريد لكنها في حق من لبس خرقة القوم ألزم وأكد، فإنه ممن يقتدي به كل صادق من إخوانه، فتتأكد عليه الآداب في سره وإعلانه،

ومنها: ألا يبدي ما يطلعه الشيخ عليه من رموزها وإشارتها لمن ليس من أهل طريقه، بل ولا لإخوانه الذين لم يتأهلوا للبسها، فإن ذلك عندهم عورة، وكشف العورة لا يجوز، والمريد الصادق قلبه قبر الأسرار، قال بعضهم: قلوب الأحرار قبور الأسرار.

وإلى ذلك أشار سيدي عمر قدس الله سره، واصفًا أحوال المريدين الصادقين: وإن أودعوا سرا رأيت صدورهم قبور الأسرار، تنزه عن نقل.

قال الفقيه عبد الغني النابلسي في معنى قول القائل:

أَلْقَاهُ فِي الْيَمِّ مَكْتُوفًا وقَالَ لَهُ إِيَّاكَ إِيَّاكَ أَنْ تبتلَّ بالماءِ

ألقاه في بحر حقيقته، وقيده بحبل متين بطريقته، وقال له: أيها العارف إياك إياك أن تتفوه بالمعارف، فيا له من غريق غير ذي بلل، ويا له من غريق نازح نائي.

ومن أدب المريد مع شيخه: ألا يفشي له سر ولو نشر بالمناشير، حتى ولو لم يكن سرا إلهيًا، فإن من خان في غيره خان فيه.

ومن خواص كتم الأسرار ما نقله الشعراني عن شيخه سيدي علي الخواص ﷺ: أن من تحقق بكتم الأسرار سمع كلام الموتى، ورأى ما هم فيه وتأمل البهائم لما لم تكن من عالم التعبير كيف سمعت عذاب الموتى، انتهى.

ونقل سيدي بدر الدين الحبشي: أخذ من أخلص مع سيدي محيي الدين في الصحبة، وأثنى عليه الشيخ بذلك في كتاب «الإنباه على طريق الله» الذي ذكر فيه ما سمعه من كلام شيخه المشار إليه قدس الله سره أنه قال: كل علم إذا بسطته العبارة حسن وقرب معناه، وعذب عند السامع فهمه؛ لأنه تحت إدراك عقله، إلا علم الأسرار فإنه إذا بسطته العبارة سجع، وبَعُد معناه، ومحته العقول؛ لأنه فوق الإدراك، فلا سبيل لها إليه، وهذا الفرق بين علم الأسرار وعلم العقول.

وأما علم الأحوال فمتوسط بين علم الأسرار وعلم العقول، ثم ليعلم أنه إن أحسن عندك علم الأسرار عندما تبسط العبارة في شرحها، وإنك من ذلك على كشف لها، وإدراك لبعض مقاماتها، ألا يثلج الصدر إلا بما يقطع بصحته، وليس للعقل هنا مدخل إلا إن أتى في ذلك معصوم يثلج صدر العاقل، وأما غير المعصوم فلا يتلذذ بكلامه إلا صاحب ذوق.

وقال: إذا قعدت بميزان فهمك عند من يتكلم بالأسرار فأنت مع حقيقة العلم الذي أتى به صاحب السر، فمن أراد أن ينتفع بكلام أهل طريق الله فليدخل عليهم فقيرا مضطرا؛ كدخوله على الله؛ لأنهم أهل الله لا يخبرون عن أحد إلا عن الله، ولا ينظرون إلى شيء إلا إلى الله، ولا يلتقون شيء إلا من الله، فمن سمع منهم فإنما سمع من الله، ومن أخذ عنهم فإنما أخذ من الله، ومن رد عليهم فإنما رد على الله ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ﴾ [النجم: ٣]، فالداخل عليهم إنما ينظر ما يأتون به فيأخذ منهم ما استطاع حمله، ويترك عندهم ما لم يستطع حمله، فهم أولى بهم، ولا ينقله لغير صنفهم، فيعود وباله عليه، انتهى.

ولم تنكر العامة على الخاصة إلا لتكلمهم بما لا يسع عقولهم من علوم الأسرار، ومن جهل شيئًا عاداه.

قال بعضهم: إن الطريق إلى الله تعالى جمعت في كلمتين: امتثال أمر، وكتم سر، فاحذر أن تفشي سرك أيها الطالب لأحد.

وقال سيدي محيي الدين قدس الله سره من أبيات:

فافهمْ لديكَ فسرُّ اللهِ فيكَ ولَا ... تُظهرُهُ فَهْوَ عنْ الأغيارِ مكنونُ

وغِـزْ عليـهِ وصُـنْهُ مـا حييـتَ بِـهِ ... فالـسِّرُّ مَيْـتٌ بقلـبِ الحـرِ مـدفونُ

وقال في «مسامرته»: ليس للسر موضع إلا لأحد رجلين؛ إما صاحب آخرة يرجو ثواب الله، وإما صاحب دنيا له شرف في نفسه، وعقل يصون به حسه، وهما معدومان في هذا الزمان، انتهى.

وقد قلت:

بـسِرِّ الهـوَى مـا ضـنَّ إلا فتًـى الـوَغَى ... محـبٌّ حـشاهُ عـنْ سِـوَى الحـبِّ فَرَغَـا

كـساهُ حبيـبُ القلـبِ ثـوبَ صـيانَةٍ ... وفي قلبِـه سِرُّ العـوالمِ أفْرِغَـا

فصانَ الهوَى أهلُ الهوَى عنْ سوءِ الهوَى ... وواشِي الهـوَى أقوالُـه بـالهوَى لَغَـا

صـبورٌ كتـومٌ صـادقٌ قـدْ رقَـي العُـلَا ... يـراعِ هـواهُ يـا أخـا العِشْقِ مـا طغَـى

ومُـذْ كـان لـلأسرارِ في الـسِّرِّ حافِظًـا ... عليْـهِ مفـيضُ الجـودِ نُعْـماهُ أسـبَغَا

حدثني شيخنا ـ رحمه الله تعالى ـ قال: لما فتح الله تعالى علي ببعض أسرار الطريق كنت أتذكر مع بعض إخواني في بعض رموز تظهر بالمجاهدات والخلوات وكان فيهم رجل صامت لا يتكلم إلا نادرًا، فاتفق أنه سافر، فأرسل لي مكتوبًا، وذكر فيه: يا أخي ومن جهة ما كنت تبديه لنا من المعاني التي وهبها الله، لك فإنا قد اطلعنا عليها لكن شرط طريقنا كتم السر، ولو بين الإخوان، أو ما معناه، انتهى.

نقل النجم الغزي في «الكواكب السائرة» عند ترجمة سيدي علي المرصفي.

قال: وكان سيدي علي ﷺ إذا تكلم في دقائق الطريق، وحضر أحد من القضاة أو الفقهاء ينقل الكلام إلى مسائل الفقه إلى أن يقوم ذلك القاضي أو الفقيه، ويقول: ذلك الكلام بين غير أهله عورة، فإذا خرج عاد إلى الكلام الأول، وقيل له: لِمَ لمْ تجعل لك درسًا في الطريق بالجامع الأزهر؟ فقال: ليس ذلك من أخلاق القوم، إنما كان الجنيد ومن بعده يدرسونه على القوم في قعر بيوتهم؛ خوفًا أن يسمع أحد عن القوم كلامًا لا يفهمه، فيقع فيهم فيهلك؛ لدقة مداركهم انتهى.

وقال سيدي محيي الدين–قدس الله سره– في «فتوحاته» في الباب الثالث والسبعين:

عدَّ بعض الرجال ومنهم الأمناء، قال النبي ﷺ: «إن لله أمناء»[1]. وقال في أبي عبيدة ابن الجراح: «إنه أمين هذه الأمة»[2] شعر:

وَمُستَخبِرٍ عَن سِرِّ لَيلى رَدَدتُهُ ... بِعَمياءَ مِن رَيّا بِغَيرِ يَقينِ

يقولونَ: خَبِّرنَا، فأنتَ أمينُهَا ... ومَا أنَا إنْ خَبَّرتهمْ بأمينِ

فهم طائفة من الملامية لا يكون الأمناء من غيرهم، وهم أكابر الملامية وخواصهم، فلا يعرف ما عندهم من أحوالهم؛ لجريهم مع الخلق بحكم العوائد المعلومة، التي يطلبها الإيمان بما هو إيمان؛ وهو الوقوف عندما أمر الله به ونهى عن جهة الفرضية، فإذا كان يوم القيامة وظهرت مقاماتهم للخلق، وكانوا في الدنيا مجهولين بين الناس.

قال النبي ﷺ : «إن لله أمناء» وكأن الذي أمنوا عليه ما ذكرناه، ولأن الخضر أمره الله أن يظهر لموسى عليه السلام بما ظهر، ما ظهر له بشيء من ذلك، فإنه من الأمناء، ولما عرض الله الأمانة على الإنسان وقتما كان بحكم الأصل ظلومًا جهولا، فأنه خوطب بحملها عرضًا لا أمرًا، فإن حملها جبرًا أُعين عليها مثل هؤلاء، فالأمناء حملوها جبرًا لا عرضًا، فإنه جاءهم الكشف فلا يقدرون أن يجهلوا ما علموا، ولم يريدوا أن يتميزوا عن الخلق؛ لأنه ما قيل لهم في ذلك أظهروا شيئًا منه، ولا لا تظهروه، فوقفوا على هذا الحد فسموا أمناء، ويزيدون على سائر الطبقات أنهم لا يعرف بعضهم بعضًا بما عنده، فكل واحد يتخيل في صاحبه أنه من عامة المؤمنين، وهذا ليس إلا لهذه الطائفة خاصة، لا يكون ذلك لغيرهم، انتهى.

ومنها: أن يقبل صورة الهوية التي في وسطها، وفي ذلك إشارة لقبول فيض الهوية المطلقة التي بها قيام الكل، فإن الهاء تشير للهوية، وهي لا يخرج عن حيطتها شيء، فالهاء لما أحاطت بطرفي ذاتها، وتجمعت أطرفها، أشارت للهوية التي جمعت سائر الأسرار، ودخل تحت طيها ما تفرق في الأدوار والأطوار، فمن تحقق بسرها كان العارف الذي على سر

---

(١) وذكره أيضًا ابن الأشكل في «الكرامات الجبرتية» (ص ٦٨) بتحقيقنا، فالأمناء علمٌ على طائفة الملامية من أكابرهم وخواصهم ويزيدون على سائر الطبقات أنه لا يعرف بعضهم بعضًا بما عنده، فكل واحد يتخيل في صاحبه أنه من عامة المؤمنين. وانظر: «مرآة الأصفياء في الملامتية الأخفياء» (ص٢٥) بتحقيقنا- طبع دار الحقيقة المحمدية – القاهرة.

(٢) رواه البخاري (١٤/ ٣٠٩)، ومسلم (١٦/ ٥٥).

الأسرار شارف، بين أعلى المشارف، سر سرها في كل شيء، ألا كل شيء ما خلا الله باطل، وقام بها الموت بالميت، والحياة بالحي، هويته ذاته، وذاته غيب الغيب الذي لا يدرك كنهها دارك، ومن أقعد عن السر في شهود مجالي تجلياتها فهو صيب جمل شهوده بارك، وهي التي لا تحجب بصورة، ولا تتقيد بقيود محصورة، وكل ما دل على الحبيب، ولو بالإشارة والتقريب فهو حبيب، وأنشد مجنون ليلى في المعنى قوله:

أَمُــرُّ عَــلى الــدِيارِ دِيــارُ لَــيلى أُقَبِّــلَ ذا الجِــدارَ وَذا الجِــدارا

وَمــا حُــبُّ الــدِيارِ شَــغَفنَ قَلبــي وَلَكِــن حُــبُّ مَــن سَــكَنَ الــدِيارا

وقال بعض العارفين: ولا أقول كما قال في البيت الثاني، وإنما أقول:

ومَــا حبِّــي لَهَــا بِــدعًا لِإنِّي أحِــبُّ محــبَّ مَــنْ عَمَّــرَ الــديارَا

وقد سنَّ تقبيل الباكورة؛ لقربها من التجلي الإلهي، المنتج وجودها، وبالأسماء حصل النتاج، وحب الاسم المنتج، وأي صورة دليل على حب المسمر، وأنشد بعضهم:

أحــبُّ اسْــمَه مِــنْ أجلِــهِ وســميّه وأتبَعُــه في أخلاقِــه وحــدِي

ويجتــازُ بــالقومِ العــدَى فــأحبُّهم وكلهُــم طــاوِي الــضَّميرَ عــلى بُعــدِي

ولكم مات من سماع الاسم عاشق ولهان، ومحب منهان، وكم أخذ عن حسه، واستغرق عن ملاحظة يومه وأمه، برؤية الاسم الكريم، الواجب الاحترام والتعظيم.

أخبرني شيخنا قدس الله، روحه ونور ضريحه، أنه رأى مرة اسم الجلالة مرسومًا في حائط بخط غليظ، فأخذ ينظر إليه ويبكي حتى غاب عن وجوده، وتفانى في شهوده، واستمر على ذلك زمنًا طويلًا، ثم صحا، ودامت معه هذه النشوة مدة أيام، انتهى.

وسبب ذلك: الحب القاهر، الأعجب الذي طرفه ساهر، ولصورة الهوية شرف ثاني من حيث مجاورتها للأسماء الإلهية، فحسن تقبيلها لدى النفوس الذكية، وقد أنشد بعضهم في تشرف من عاشر الأشراف، حتى عاد مقبلا كجلد المصحف، قوله:

مــنْ عــاشرَ الأشرافَ عــاشَ مُــشرَّفًا ومُعــاشِرُ الأنــذالِ غــيرُ مــشرَّفِ

أو مــا تــرَى الجلــدُ الحقــيرُ مُقــبَّلاً بــالفمِ لَمــا صــارَ جــارُ المــصحفِ

وقد أفتى الإمام الرملي - رحمه الله- بجواز تقبيل أعتاب الأولياء وتوابيتهم؛ تبركًا بآثار الصالحين، كما يجوز التبرك بكسوة البيت الشريف بمسحها على الوجه وتقبيلها، فالمحب يتبرك بالآثار، ويتلذذ بكل ما لحبيبه أشار، ولو استطار في فؤاده من المحبة نار، وبذلك أحب اللوام لذكر اسم حبيبه حال التفريع والملام، وقد قال بعض المحبين الكرام:

أَجِدُ المَلامَةَ في هَواكِ لَذيذَةً ... حُبًّا لِذِكرِكِ فَلْيَلُمْنِي اللُّوَّمِ

وأنشد في المعنى سيدي قرة قدس الله سره:

أَدِرْ ذِكرَ مَنْ أَهوَى ولَو بِمُلامِي ... فَإنَّ أَحاديثَ الحَبيبِ مُدامِي

لِيَشهدَ سَمعِي مَنْ أُحبُّ وإنْ نَأى ... بِطَيفِ مُلامٍ لا بِطَيفِ مَنامِ

وقد قلت في هذا المقام:

أُحَبُّ فُؤادِي كُلَّ ما كانَ للمُنَى ... يُنَبِّهُهُ حتَّى الإشارَة والكِنَى

ويُطْرِبُهُ عِندَ الوشاةِ فَسَما أَساءَ ... عَذولٌ بَلَى في ذكرِه الحبَّ أَحسَنَا

ولَولَا الحياءُ قَبَّلتُ فَاهُ صَبابَةً ... بِمَنْ باسمِهِ قَدْ ذُبْتُ فِيهِ فَلا أَنَا

جَزَا اللهُ خيرًا مَنْ عَلَى الحبِّ لامَنِي ... فَقَدْ جَادَ بِالأفراحِ للقَبِّ والهَنَا

وعِنْدَ أَذكارِ الحُبِّ يَزدادُ قُربُهُ ... كَأَنَّ عَذولِي قالَ لِي الحُبُّ قَدْرُنَا

ومنها: ألا يدخل بها لبيت الماء؛ إجلالاً لأسماء الله، وإكرامًا لها، وقد ذكرت فقهاءنا: إنه يكره بسط بساط كُتب عليه: الملك لله، واستعماله لا تعليقه للزينة، وقيل: إذا كان كلام الناس لا يكره مطلقا، وقيل: يكره مجرد الحروف، وكذلك كرهوا رمى بِراية القلم المستعمل لا الجديد، كما كرهوا الدخول للخلاء بحجاب أو نحوه إلا إذا كان بغلاف متجاف، وقالوا: الاحتراز أولى كل ذلك تعظيمًا لأسماء الله تعالى، وكذلك كرهوا لمن كان خاتمه قد كتب فيه آية من كتاب الله، أو بعض أسماء الله تعالى أن يدخل به لمحل الطهارة، وكذلك من كان معه دراهم قد كتب عليها بعض آيات، ولكن إذا لم يمكنه نزعها فليسترها بمحرمة، أو غير ذلك؛ فإن في ضمنها ثمان جلالات، وأربع لا إله إلا الله، فينبغي عدم الدخول بها إلا للضرورة.

حكي القشيري - رحمه الله تعالى- في «رسالته» عند ترجمته بشر الحافي - رحمه الله تعالى - قال: وكان سبب توبته أنه أصاب في الطريق كاغدة عليها مكتوب اسم الله تعالى قد وطئتها الأقدام، فأخذها واشترى بدرهم كان معه غالية فطيب بها الكاغدة، وجعلها في شق حائط، فرأى فيما يرى النائم كأن قائلا قال له: يا بشر طيبت اسمي لأطيبن اسمك في الدنيا والآخرة، انتهى.

قال علام الغيوب: ﴿وَمَن يُعَظِّمْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى ٱلْقُلُوبِ﴾ [الحج:٣٢] سألوني بعض الإخوان عن رجل يجعل الكتب سُلّمًا، هل يجوز هذا؟ فقلت: لا، فقال: إنه يسأل، فأجاب أن هذه الكتب هو وهو وهي، فقلت له: لا يسلم له هذا الكلام إلا إن كان سكرانًا بحاله، وأما الصاحي فإنه لا يخرج عن دائرة الشرع أصلاً، وهذا شرع لا يجوز، فإن الكتب لا تخلو عن الآيات والأحاديث، ووطئها بالأقدام يحرم، وإن كانت بطريق الاستهانة فكفر، فهذا إما أن يكون من جهل فاعله، أو من سكره، وغلبة الحال عليه، ولا يجوز الاقتداء بمن هذا حاله.

وكذلك لا يجوز اعتقاد ما يعتقده بعض الخلوتية أن المصحف الشريف لا يجوز وضعه فوق الكسوة، والكسوة يجوز وضعها عليه، فإن هذا جهل من قائله، ولا دليل له عليه لا شرعًا ولا عقلاً، فإن الكسوة إذا عظمناها فإنما تعظيمها لما احتوت عليه من أسماء الله تعالى؛ ولأنها ذيّ السادة الأخيار، والقادة الأحرار، فكيف بالقرآن العظيم الحاوي على كل فضل جسم، فتعظيمه من أعظم القربات، وأفضل المثوبات، فتنبه من مثل ذلك، سلك الله بك وبنا أحسن المسالك.

ومنها: إنه إذا انتقل من قد لبسها إلى دار الخلود، ومنزل الشهود، يأخذها الشيخ من أهله؛ صيانة لها عن أن يهينوها ولا يعظموها، وأما إذا علم منهم تعظيمها فلا بأس بإعطائها لهم، خصوصا إذا طلبوا إبقائها منه، وليس له أن يأخذها مع وجود قاصر، ولا بغير رضا ورثته، فإن مثل هذا لا يجوز كما أسلفنا فيما إذا أمره بنزعها، ولا يقال أن هذا جائز من حيث الطريق، فإن أهل الطريق لا يخالفون الشريعة بحال، ومن ظن أن أهل الطريق يفعلون ما لا مستند له في الشرع فهو في خبال، فإنهم يرون التمسك بالمندوب الشرعي، من أعلى الأحوال وأثنى الأعمال.

يحكى أن سيدي أبا يزيد البسطامي ﷺ سمع برجل من أهل الصلاح فقصد زيارته،

فرآه قد بصق عن يمينه فرجع، ولم يجتمع به، فقيل له في ذلك، فقال: رجل لم يأمنه الله على أدب من آداب الشريعة، كيف يأمنه على سر من أسرار الحقيقة، وقال: لو رأيتم الرجل أعطى من الكرامات حتى تربع في الهوى فلا تغتروا به، حتى تنظروا كيف تجدونه عند الأمر والنهي، وحفظ الحدود، وآداب الشريعة، انتهى.

فأهل الطريق لا يخالفون الشريعة أصلاً، ولا نعني أنهم لا تقع منهم هفوة، بل تقع، لكن يقرون ويعترفون بذنبهم، وإقرارهم من جملة وقوفهم مع الشرع، قال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً أَوْ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ ذَكَرُواْ ٱللَّهَ فَٱسْتَغْفَرُواْ لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ إِلَّا ٱللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّواْ عَلَىٰ مَا فَعَلُواْ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:١٣٥].

ومنها: أنه لا يطأطئ رأسه وهو بين يدي شيخه حتى يرى الشيخ هويتها، فإن هذا الجلوس من سوء الأدب، إلا أن يكون عن غلبة حال، ووجد واستغراق فلا ملام، وأما الصاحي فلا له ذلك، بل يكون منكس الرأس، يسارق وجه الشيخ بالنظر نظر تحبب وتودد، فإن من كان في نظره جمود دل على عدم صدقه في المحبة، فيظهر عليها القِلَى والجفاء بأدنى اختبار وامتحان من الشيخ، وبعض المريدين لم ينظروا في وجوه أشياخهم من شدة الهيبة التي تعتريهم، كما وقع ذلك للشبلي لما سئل عن لحية شيخه الجنيد أكان شيبها أكثر أم سوادها؟ فقال: أو كان له لحية أني كنت لا أرى إلا شيخًا، والمريد ليس له أن يشتغل بحضرة شيخه إلا بما يلقي عليه من لفظه ولحظه، وقد قيل: من لا ينفعك لحظه، لا ينفعك لفظه، وليس له أن يشطح مع خاطر أو وارد وغير ذلك، كما أنه ليس له أن يتحدث مع إخوانه بحضرته، أو يجيب عن سؤال، وكل ما أُشعر بسوء أدب يلزم المريد تركه، فإن سوء الأدب موجب للعطب.

ومنها: إخفاءها الجلالة، وفيها إشارة لإخفاء سرها، فإن اسم الجلالة الكريم لا يظهر مرة إلا بانضمام الهاء إليه، فإذا اختفت الهاء يظهر سره المصون، وهذا من باب كتم السر، وقد تقدم الكلام عليه، ولما كان الذكر بدون إثبات هاء الجلالة لا ينتج لصاحبه؛ إذ بدونه لا يسمى ذكرًا، كان رسمها بغير هاء غير صحيح، فمن أخفى الهاء، فكأنه ما أظهرها؛ أي: ما أظهر سرها، فإن إظهارها لا يضر؛ ولكن إظهار سرها عند غير أهله لا يجوز، فافهم والله أعلم.

ومنها: عدم تشوقه وتشوفه للبسها؛ لئلا يكون عمله معلولاً، وسعيه واجتهاده مدخولاً.

وعن مكحول: ما أخلص عبد قط أربعين يوما إلا ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه، وفي رواية: تفجرت، وهو معنى قوله ﷺ «من أخلص لله أربعين يوما ظهرت ينابيع الحكمة من قلبه على لسانه»[1] رواه أبو نعيم في «الحلية» عن أبي أيوب كذا في «الجامع الصغير».

قال بعض العارفين: ومن أخلص لكي تتفجر لن تتفجر؛ أي: لأنه لم يخلص، فإن الإخلاص إفراد الحق سبحانه وتعالى في الطاعة بالقصد، ومتى شهد المخلص إخلاصه فما أخلص، واحتاج إخلاصه إلى إخلاص.

قال ابن عطاء الله قدس الله سره: تشوفك إلى ما بطن فيك من الغيوب خيرا لك من تشوقك إلى ما حجب عنك من الغيوب، انتهى.

ولا يقع في مثل هذا إلا الذي لم يخلص من شر نفسه، وكان غير صادق في سيره لحظائر قدسه، وأما الصادق فأنه لا يزال مشاهدًا نقصه عن درجات الكمال، ولو بلغ أقصى مبالغ الرجال، فلا يرى نفسه أهلا للتزي بزي السادة الأحرار، أهل الصفاء والوفاء الجهابذة الأخيار.

قال النوري قدس الله سره: كانت المبرقعات غطاء على الدر فصارت مزابل على جيف، وقيل لمالك ابن دينار ﷺ في لبس الصوف، فقال: يحتاج إلى صفاء.

وكان أبو سليمان الداراني ﷺ يقول: ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب. قال أحمد بن أبي الحواري: وكان ثوبه وسطًا، انتهى.

فينبغي للمريد ألا يستعجل الشيء قبل أوانه، فإن من استعجله قبل أوانه عوقب بحرمانه، وليس الشأن فيمن يطلب اللباس، إنما الشأن فيمن طلبه اللباس، وليس الشأن فيمن تزين باللباس، إنما الشأن فيمن زين اللباس، كما قالوا: ليس المريد من يفتخر بشيخه، فمن أشغل نفسه بتزين الظاهر دل على أن فؤاده من الشواغل ليس بظاهر، وأما من أقيم مقام الإرشاد فله التزين؛ اقتداءً بالنبي ﷺ «فإنه كان ينظر في المرآة، ويسوي عمامته وشعره، فسألته عائشة – رضي الله عنها– عن ذلك، فقال: إن الله تعالى يحب العبد إذا تزين لإخوانه

---

(١) (١٠/ ٧٠).

إذا خرج إليهم»[1]؛ ولئلا يسقط من عين الخلق فلا ينتفعون به بعد، وأما فعل ذلك من المريد السالك فهو من جملة القواطع التي تقطع المريد عن الحق تعالى.

يحكى أن القاضي زكريا الأنصاري -رحمه الله تعالى- كان إذا خرج للناس يسوى عمامته فرأى بعض إخوانه النبي ﷺ فسأله عنه، فقال ﷺ: أنه رجل جيد، إلا أنه إذا خرج للناس سوى عمامته، فأخبره فكان بعد ذلك إذا خرج للناس هَدلها.

وقال الشيخ أحمد العلواني في «شرح تائيته» عند ذكره لمناقب سيدي محمد البكري قدس الله سره، وقد أخبرت وأنا في مصر، أخبرني بعض المتجردين عند الشيخ قال: ظهر بمصر شريف من العجم يدعو الولاية، ثم آل به الأمر إلى أن صار ممن يخدم الشيخ وصحبه؛ لينتفع به، ففي يوم خطر في سره كيف يكون هذا الشيخ وليًّا وهو على هذه النظافة والتنعيم؟ فقال له الشيخ في الحال: قد عجزنا ونحن نطهر ظاهرنا ونزينه؛ ليصل إلى طهارة باطننا، وزينته، فما وصلنا إلى المساواة، قال الشيخ أحمد: فهذا هو العطاء، انتهى.

أي: فإن باطنه – قدس الله روحه- قد تزين بأفخر الملابس العرفانية، والحلل النورانية، واسمه تعالى العدل يطالبه، كما أنه وفّ الباطن حقه أن يوفي الظاهر حقه، وهذا حال المتخلق بأخلاق الله، الذي يعطى كل ذي حق حقه، فما قصد القوم بلبس الأثواب الفاخرة الزينة؛ إذ قلوبهم مشتعلة بالحبيب كثيبة حزينة، وإنما قصدوا العدل بين الظاهر والباطن؛ لأنهم أجل من وفّ حق المواطن، ومن هذا المقام: «**إزالة النبي ﷺ نعله من رجله حين انقطع شراك نعله الأخرى، فسوي بين قدميه في الحفاء**»[2].

قال الشعراني قدس الله سره في «الأخلاق المتبولية»: وكذلك ينوي بلبس الثياب الفاخرة إظهار نعمة الله تعالى عليه، دون الحظوظ النفسانية، وكذلك بأكل اللذيذ من الطعام البارد، والحلو من الشراب؛ لأجل استجابة أعضائه بشكر الله تعالى بعزم.

وقد كان الشيخ أبو الحسن الشاذلي ﷺ يقول لأصحابه: كلوا من أطيب الطعام، واشربوا من ألذ الشراب، وناموا على أوطي الفرش، والبسوا ألين الثياب، فإن أحدكم إذا فعل ذلك، وقال: الحمد لله، يستجيب كل عضو فيه للشكر، بخلاف ما إذا أكل أحدكم خبز الشعير بالملح، ولبس العباءة، ونام على الأرض، وشرب الماء المالح الساخن، وقال:

---

(١) ذكره العراقي في «تخريج أحاديث الإحياء» (٧/ ٤٥٣) وفيه: «ينظر في جب الماء».

(٢) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (١/ ٤٨١).

الحمد لله، فإنه يقول ذلك وعنده اشمئزاز وبعض السخط على مقدور الله عز وجل، ولو أنه نظر بعين البصيرة لوجد الاشمئزاز والسخط الذي عنده يرجح في الإثم على من تمتع بالدنيا بيقين، فإن المتمتع بالدنيا فعل ما أباحه الله، ومن كان عنده اشمئزاز وسخط فقد فعل ما حرم الله.

قال سيدي عليّ الشاذلي رحمه الله تعالى: طريقنا إظهار النعمة في الملبوس وغيره دون التقشف، لما فيه من رائحة عدم انشراح النفس، فثياب أحدنا كثياب الأغنياء، وقلبه من أفقر الخلق إلى الله تعالى، فلا يكاد أحد ينسبه إلى الفقراء لما هو عليه من الفخامة، وأكل الأطعمة الفاخرة، انتهى.

ومن هنا لبس بعض العارفين الملابس الفاخرة، ولكن المقام الأكمل، والمنزل الأجل تخشين الثياب؛ إقتداءً بسيد الأحباب، ولزوم الحالة الوسطى، فأنها أسنا و أوطأ، وليحذر المريد أن يستبطئ وقت حصول الإذن في لبسها، فأنه يكون متشوقا وهو مشغل القلب بغير الله، فأنه ربما كان عدم الإذن في لبسها لحكمة يعلمها الله تعالى، وإن تأهل لها المريد، ومن رأى نفسه أنه من أهلها، فليس هو من أهلها، كما أنه من رأى نفسه أنه وصل، فما وصل، ولا ينبغي أن تستبطئ الوصول، فإن من استبطأه فهو جهول.

وفي قلت سابقًا من قصيدة:

وأشْـهدْ الوَصـلَ يـا خلـيْلي بالفـضلِ	وإيَّـــاكَ أنْ تقُـــلْ ذلِـــكَ أبْطَـــأ

وإياك أن تغفل عن المجاهدة بقولك: قد وصلت للمعاينة والمشاهدة، فإن أهل الشهود دون أهل النهاية، مجاهداتهم قلبية، وأهل البداية مجاهداتهم بدنية، فمن شهد أنه واصل فهو محجوب، لم يقف في سيره على حاصل، فإن الوصول محال؛ إذ لا نهاية للمطلوب على التفضيل والإجمال، فانزع ثياب الأدناس عن بدنك؛ لتكسى ثياب الأكياس في سرك وعلنك، واخلع ثوب إطلاق الحواس؛ لتجمل بحلل التقريب والإيناس، وقس على ذلك بقية أعضائك، فمن نزع لباسًا دني، كسي ثوبا سني، وكان عيشه هنيء، وبريه سعيد غني، ومن كسي سمعه حلة سماع المكالمة كان من أهل المسالمة، ومن خرق بصره الحجاب كسي لباس مشاهدة الأحباب ومن أكتسي ثوب القرب للحبيب، كان طبيبًا يداوي أمراض البعد بكل دواء عجيب، وقلت:

الـــبسْ ثيـــابَ القـــربِ للمحبـــوبِ	كَـــي تفُـــزْ واشربْ بـــألطفِ كـــوبِ
واخلـــعْ بِـــهِ ثـــوبَ الحيـــاءِ متـــدِّرعًا	درعَ اللقـــاءِ مـــنْ خاطـــبِ مخطـــوبِ

واكرغ بأقداحِ الصفاءِ صرفًا ودغ — خمرًا بِهِ ماءَ الجفاءِ مشوبِ
والثوبُ أنْ فانزعنَّ ثمَّ الإناءُ — واشربْ بهِ منْ خالصِ المشروبِ
والهوَى فأشهدْ بِهِ تُعطَى المنَى — فالربُّ يُعطِي القربَ للمربوبِ
وتحلُّ في ثوبِ المعبودةِ خالعًا — ثوبَ النقاءِ بحضرةِ المطلوبِ
بلْ كنْ بِهِ فيهِ لَهُ محوًا ولا — تنظُر سِواهُ وشقَّ جيبَ غيوبِ
لَا تستمِعْ قولَ ابْنِ آخِرِ ليلةٍ — واشربْ لِأُمِّ الليلِ بنتُ حقوبِ
شمسٌ إذَا جُليَتْ بكونِ شروقِهَا — وإذا احتستْها القومُ وقتَ غروبِ
واطربْ إذا ما إنْ حدا حادِي الهوَى — فإذ الذِي فِي حبِّه بطروبِ
واخطبْ عَلَى كُرسِي وصلكَ واللقاءِ — لا تخشَ صبَّ مهامةٍ وخطوبِ
وأندبْ إليْهِ كلَّ صبٍّ غافلٍ — وأذِقْهُ منْ خمرِ الوفاءِ المسكوبِ
ثمَّ الصلاةُ معَ السلامِ على النَّبي — المصطفَى الهادِي والفتَى المحجوبِ
والآلِ أهلُ فتوةٍ ومروءةٍ — منْ كلِّ مولاً ناسبٍ منسوبِ
وصحابةٍ فازوا بكلِّ نجابةٍ — حازوا النجاةَ بالسيِّدِ المصحوبِ[1]

وقلت في هذا المقام من النظم:

لَا يُطفيءَ للقلبِ غِلَّهْ — إلَّا لِقاءَ منْ أعلَّهْ
ولا ينالُ التَّداني — إلَّا المحبُّ الموَلَّهْ
أسيرَ شوقٍ وتوقٍ — كُسِي سقامًا وذِلَّه
مملوكٌ [..............] — ما فِيهِ للغيرِ فضلَهْ
وذاتُهُ بالتَّجلي — ممحوةٌ مضمحلَّه

(١) بعده بيتان غير واضحين.

لِباسُهُ ثوبُ فقرٍ ... عن فقرِهِ يا سولَهْ

وقد كُسِي فِي حِماهَا ... بوصلِها خيرَ حُلَّهْ

ومنْ لامَهُ فِي هواهَا ... فَذاكَ لا شكَّ أبلَهْ

صريعُ بينَ وأينَ ... وعقلُهُ فيهِ خُلَّهْ

حبُّ المليحةِ دينِي ... ومذهبٌ لِي ومِلَّهْ

لَهَا صلاتِي ونُسْكِي ... ووجْهُها لِي قِبلَهْ

ما الشمسُ لولا سَناها ... وما بُروقُ الأهِلَّهْ

من لم يذُقْ خمرَ ليلَى ... فَذاكَ حُبٌّي أضلَّهْ

ومنْ يذُقْهُ فحيٌّ ... روضِ الوِصالِ أحلَّهْ

فاخلعْ عِذارَكَ واشطحْ ... ولا تقُلْ ذاكَ غفلَهْ

ففيهِ يحسنُ هَذا ... إنْ كُنتَ صبًّا مُدلَهْ

وانزعْ ثيابَ اعتزازٍ ... والبسْ ثيابَ الأذِلَّهْ

وعاذلُ الحبِّ ذاكَ الـ ... خلِّي دعْهُ وعزلَهْ

ثُمَّ الصلاةُ عَلَى مَنْ ... محبوبُنا قد أجلَّهْ

والآلُ والصحبُ من هُم ... أفيا وُنا والأظِلَّهْ

ومنها: ألا يكذب على أهل الطريق بدعوى أنه منهم، وهو غير مقتدي بأخلاقهم، ولا مهتدي بأشرافهم، فما دام مقتفيا آثارهم، مصطحبا أنوارهم، نال الوصول، وحظي بالقبول، وأما من وافقهم في اللباس، وخالفهم في الإقتداء والاقتباس، فإنه لم يحكم بنيان تقواه على أساس، فينبغي له إن كان لنفسه ناصحًا أن يتجرد عن ملابسهم الفاخرة، ولا يلبسها إلا على طهارة باطنة وظاهرة، ويتجرد للجد والاجتهاد، حتى يعود له حاله الأول، فيعود للبس زي السادة الأفراد، ولكم تسبب من أنتسب بمجرد اللباس بأفعاله المخالفة لأفعالهم في القياس بالطعن في أهل زيه المنتسب إليهم، والمعول في كل أحوالهم ظاهرًا

عليهم، وهذا لا يليق بمحبهم، المدعي الشرب من شربهم.

قال سيدي محيي الدين قدس الله سره، في روح القدس في مناصحة النفس: ويرحم الله تعالى أبا القاسم القشيري حيث أدرك من تحلى بحلية القوم في ظاهره، وتعرى عنه في باطنه فانشد فيه يقول :

أمَّا الخيامُ فإنَّها خيامُهُمْ وأرَى نِساءَ الحيِّ غيرَ نسائِهَا

هذا الذي قد اشترك معهم في الذيّ الظاهر وأما اليوم فلا خيام ولا نساء بإجماع من القوم، إذا الموت الأخضر عندهم طرح الرقاع بعضهم على بعض، وذلك شعارهم - رضي الله عنهم - فقام هؤلاء وقالوا: إنما لنا لبس مرقعة خاصة، ولم يلحظوا لآدابها، فتنافقوا في الثياب المطرحة، والأعلام المشهرة، وخاطوها على وزن معلوم، وترتيب منظوم، تساوي مالاً وأفسدوا عليها ثيابا، وسموها مرقعة، فرحم الله سيد هذه الطريقة أبا القاسم الجنيد حيث أنشد لما رأى فساد الحال، شعر :

أهلُ التَّصوفِ قد مَضَوا صارَ التَّصوفُ مخرقَة
صارَ التَّصوفُ ركوةً سجادةً ومزلقَة
صارَ التَّصوفُ صيحةً وتواجُدًا ومطبقَة
كذبتك نفسك ليْسَ ذِي سننِ الطريقِ الملحقَة

والله أعلم أهل الطريق كذا، وما كان إلا بالقعود في مرابض الكلاب مجاهدة، وتحمل الأذى، وكفه رياضة، والرحمة والشفقة والعطف على الفقراء والمساكين والمسلمين كافة، تحققًا ومعرفة.

ثم قال بعدما عدد من أوصافهم: ولقد لقيت من هذه البلاد من يلبس سراويل الفتيان، ولا يستحي في ذلك من الرحمن، لا يعرف شروط السنن والفرائض، ولا يصلح أن يكون في المرابض، ومع هذا يا ولي افهم، والله الصدق الذي يخفى الدرب والسياج على الروضة ذات الزهر يدخل بينهم الصادق والصديق، فيجهل، والعارف المتمكن فيترك ويهمل، فأنه يحمل على ما هم عليه؛ لاشتراكهم في السكن، وما بينه وبينهم معامل في شيء، ثم أطال مما هو أحلى لدر المحب من صافي الجريال وأرق من السحر الحلال، فمن أراد نصح نفسه فليطالع هذا الكتاب، ويترك بعده قشر دعاويه، يأخذ بالصدق في طلب

اللباب.

واعلم أن «القلب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبه كيف يشاء»[(١)] ولما تحققت الأخبار في ذلك كان الغالب على دعائهم: اللهم يا مقلب القلوب والأبصار، ثبت قلوبنا على دينك، قال الله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفْئِدَتَهُمْ وَأَبْصَٰرَهُمْ﴾ [الأنعام:١١٠]، وقال: ﴿يُثَبِّتُ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱلْقَوْلِ ٱلثَّابِتِ﴾ [إبراهيم:٢٧] الآية، فتحققوا أنه المقلب والمثبت، فتوجهوا إليه في الثبات على دينه القويم وطريقه، وإذا حصل للعبد التثبيت على الطريق الذي يرضاه فذاك عبدًا اصطفاه واجتباه، ولشدة خوف العارفين لم يقطعوا لهم بمقام، ولا لغيرهم؛ لعلمهم بأنه المقلب، فقد يكون الأمر كذا ثم يصير كذا، وهذا التقليب من حضرة الإطلاق التي يفعل الحق تعالى فيها ما يشاء، قال الله تعالى: ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ [هود:١٠٧]، فمن وقف على سر هذه الحضرة استصحب الخوف، ولم يأمن المكر، ولو بلغ في الكمال أقصى غاية.

ولذا قال تعالى لسيدنا جبريل عليه السلام وميكائيل عليه السلام لما جلسا يبكيان عند العرش:

«ما يبكيكما؟ فقالا: لا نخاف من مكرك، فقال تعالى: هكذا كونا لا تأمنا مكري»[(٢)].

وقال ﷺ: «أنا أعرفكم بالله، وأخوفكم منه»[(٣)] فإذا رأى المريد من نفسه رجوعه لشهواته، وانكبابه على عاداته، واشتغاله بنفسه في يومه وأمسه، فإن أمكنه المجاهدة والجد والكر إلى ما كان عليه من بذل الجهد، فذاك وإلا فليخلع لباس القديم، ولينزه طرفه عن النوم إلى أن يعود له حاله مع ربه، ويحظى بطيب وأنسه وقربه، فيعود للبس خرقته بعد ما كان قد احترق بنيران حرقته.

يحكى أن بعض السادة من أصل النسك والعبادة، ممن تحلى بحليه القوم، وأفطر على شهود حبيبه، ونوى عن من سواه الصوم، كان ملازما في الحرم المكي، كثير المجاهدة، فمال قلبه لمغنية مشهورة، وعلق بها لبه، فصار يتردد إليها، فجاء لمجلس الصوفية، وخلع خرقته وقال لهم: هذه خرقتكم، وكنت لبستها على صفاء، والآن قد أحب قلبي فلانة، ولا أحب الكذب في حالي، ولقد كان لي حال مع الله، فإذا عادت لي عدت للبس خرقتكم، ثم آل به الأمر إلى أن صار يحمل لتلك المغنية آلة الغناء، فأخبرها بعض الناس بخبره، وما كان

---

(١) رواه مسلم (١٧/ ١٧٩)، وأحمد (١٤/ ٢٥٥)، وابن ماجه (١/ ٢٤٠).

(٢) ذكره الحجة الغزالي في «الإحياء» (٣/ ٢٨١).

(٣) رواه البخاري (٥٧٥٠)، ومسلم (٦٨٧١).

عليه، فكسرت آلة الغناء، وتابت على يده، وحسنت توبتها، ورجع له حاله، فجاء إلى الصوفية وأخبرهم، ثم لبس زيه، واستقام على طريقته إلى المات.

فهكذا حال الصادقين مع ربهم، لا يحبون أن يظهروا خلاف ما يبطنوا، بل يسعون في استواء العلانية والسر، بل بعضهم يجعل سره خيرا من علانيته؛ محبة في الحق، فأنه مركز الصفاء، والمريد ميزان أحواله بيده، لا يرميه أصلاً، فإذا رأى نفسه مشغولاً بالحق، معرضًا عما سواه، متزايد الأحوال، متضاعف الأعمال، حمد الله وأثنى عليه، وإن وجد خلاف ذلك سأل الله أن يزحزحه عما لا يرضيه، ويقبل به على حضرات قربه، ويسوقه بعصا الجذب إليه، وهذا هو طريق المحاسبة الذي ينبغي لكل طالب ألا يغفل عنه، فإن لم يمكنه فأحيانا وأحيانا، وإلا فوقتين يتفرغ فيها للمحاسبة بما صدر منه، في النهار وقتًا، وفي الليل آخر، فيحمد الله على الطاعة، ويستغفره على المعصية .

لقد حكى سيدي محيي الدين قدس الله سره في «رسالة الكنه فيما لابد للمريد منه» عن بعض أشياخه: أنه كان يقيد حركاته في كتاب؛ أي: التي تصدر منه على غفلة، فكان إذا أمسى جعل صحيفته بين يديه، وحاسب نفسه على ما فيها.

قال الشيخ: وزدت أنا على شيخي تقييد خواطري.

وذكر في «العبادلة» له أنه وجد لهذه المحاسبة بركة عظيمة، فكل من لم يجد في حاله زيادة فأوقاته كلها نقصان، فإن المدد الإلهي يصحب كل نفس من أنفاس العبد، لكن لا يشعر بذلك إلا من كشف الله له عن ظلام وجوده الحالك، قال الله تعالى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩].

قال القاضي: كل وقت، وقال تعالى: ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [ق:١٥]،﴿وَمَآ أَمْرُنَآ إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍۭ بِٱلْبَصَرِ﴾ [القمر:٥٠]، فالترقي لا ينقضي إذا الإمداد لا ينقطع. ﴿مَا عِندَكُمْ يَنفَدُ وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل:٩٦] وهو دائم في الدنيا وفي الآخرة، فمن كان مع ربه أدرك فيض مدده، ومن كان مشتغلا عنه، مملوء الباطن بالغير، تخطاه الإمداد إذ الهوى إنما هاب من حضرة القدس، يدخل على الفارغ فيملأ علمًا وحكمًا، والناقص يكمل نقصه، وأما الملآن من الأغيار فأنه لا يدخل عليه، ولو دخل عليه لا يجد نفعًا، فكأنه ما دخل.

سئل ابن الجوزي: لم لا يبرد كوز الماء إلا إذا كان ناقصا؟ فقال: لتعلموا أن الهوى لا يدخل إلا على ناقص، انتهى.

يشير إلى أن الهوى مقام نازل بالنسبة لما فوقه، فلا يدخل إلا على ناقص، أما الكامل فلا يدخل عليه؛ لامتلائه بأنوار الشهود، وتبرئه عن الحول والقوة والوجود.

والحاصل أن المريد الصادق لا يتظاهر للخلق بلباس الأخيار، ويعلم من نفسه أنه غير متأهل لذلك يقينًا، لا باعتبار شهود النقص في نفسه، فإن ذلك لا يفارقه ما دام في هذه الدار، فلا يرى به قصد الشهرة أو الافتخار، فإن من تظاهر بما ليس عنده فقد قصد بلباسه غير الله.

وقد جاء في الحديث: «مَنْ لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ أَعْرَضَ اللهُ عَنْهُ حَتَّى يَضَعَهُ مَتَى وَضَعَهُ»[1] وفي رواية عنه ﷺ: «لَبِسَ ثَوْبَ شُهْرَةٍ فِي الدُّنْيَا أَلْبَسَهُ اللهُ ثَوْبَ مَذَلَّةٍ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ثُمَّ أَلْهَبَ فِيهِ نَارًا»[2].

قال الشعراني في «العهود الصغرى»: أُخذ علينا العهود ألا نلبس لباس الصالحين ونفعل فعل الجاهلين الجبارين الفاسقين، وذلك ألا نلبس كالذي يلبس جبة من صوف ويرخي لعمامته عذبة، ويأخذ بيده مسبحة، ويحضر أوراد الفقراء، ويهيم في الذكر، ثم يشتكي جاره، أو من له عليه دين من المغترين من بيوت الحكام، ويحبسه على مال هو في غنية عن ذلك، أو يعامل الناس بالمعاملة الفاسدة التي كلها غش، ثم إذا باع شيئًا جافى على المشتري فيه، ومثل هذا لا ينبغي له أن يلبس ثياب الصالحين.

وفي الحديث: «الْمُتَشَبِّعُ بِمَا لَمْ يُعْطَ كَلَابِسِ ثَوْبَيْ زُورٍ»[3]، ومعلوم أن الزور معدود من كبائر الذنوب، وإنما قال ثوبي زور بالتثنية دون الإفراد؛ إشارة إلى أن العمل الواقع من العبد حقيقة لله تعالى دون العبد فهو كالزور من أصل، ثم إنه إذا ادعى أعمالا لم تصدر منه، وتشبه كان ذلك زور فوق الزور الأول، فافهم.

وقد كان سيدي أحمد بن الرفاعي ﷺ إذا رأى على أحد من أصحابه جبة صوف قال له: يا أخي انظر بزي من تزييت، إنما لبست لباس الأنبياء والأصفياء، فإن لم تسلك طريقهم، وإلا فانزع لباسهم.

وقد سئل الحافظ ابن حجر -رحمه الله- عن العذبة! فقال: هي سنة، ولكن إذا فعلها على قصد التمشيخ حرم عليه، وقد بسطنا الكلام في هذا العهد في «رسالة الآداب» والله أعلم، انتهى.

ومنها: ألا يلبسها حمراء اللون، فإن الأحمر ملبوس أهل الأهواء، بل يتخذها من

---

(١) رواه ابن ماجه (١١/ ١٩٩).

(٢) رواه ابن ماجه (٢/ ١١٩٢).

(٣) رواه البخاري (١٧/ ٣٤٧)، ومسلم (١٤/ ٢٣١).

الأخضر وغيره من الألوان، لكن لا الفاتح، لأن الفاتح لا يكون إلا بإشارة، فإنه يشير إلى حصول الكشف الفاتح لكنوز الأسرار، المجلو بطوالع الأنوار، فإن اللون الفاتح أجلى من غيره، فيحتاج أن يكون كشف صاحبها أجلى من غيره، وقد تقع بلبسها إشارة، وأما الأبيض فلا يلبسها منه إلا بعد رياضة تامة، أو خلوة أربعينية؛ ليحصل له كمال الإشراق، فإن الأبيض يشير بزيادة الوضوح، وكمال الفتوح، فلا يلبسه إلا بعد لبس الأول، والثانية إشارة للترقي من مقام إلى ما هو أرقى منه، وقد يلبسها الشيخ من أول وهلة للمريد؛ لكمال استعداده في طلب المزيد، وكذلك قد يلبس الثانية لمستحق الأولى، وليس للمريد لبس الثانية والثالثة بعد لبس الأولى إلا بإشارة من الشيخ؛ ليعلمه بتأهله لذلك أو لا، من لبسهما قبل الإذن كان مدعيا ما ليس فيه، ومن ادعى ما ليس فيه كذبته شواهد الامتحان، وعنده يكرم المرء أو يهان، ويكون ممن قد استعجل بالشيء قبل أوانه، ومن فعل ذلك عوقب بحرمانه.

واعلم أن نور النفس الأمارة أزرق، ولهذا استحبوا للمريد لبسه ليوافق نور نفسه؛ ولأنه شعار أهل الحزن، والمريد حزين على فوات حظه من ربه، كئيب على ما ضيع من عمره في لهوه عن حضرات قربه.

ونور اللوامة أشقر، ولون الملهمة أبيض، والطائفة لا يرون لبسه إلا لمن وصل إلى فناء البشرية، وكمال العبودية، فلا يرخصون في لبسه؛ أدبًا لكل مريد إلا أن تأهل له، وإذا كان لبسه يمنعون منه غير المتأهل، فلبس الخرقة منه أولى، ولكل نفس نور يخصها، وقد تختلف، وقد تتقدم بعضها على بعض، وقد تتعدد في نفس، فيكون للإمارة نورًا ازرقًا، ثم يصفر، ثم يبيض، ويتلون بألوان كثيرة، والمريد بعد في المقام الأول، فلهذا قالوا: لا ينبغي لبسه إلا بإذن من الشيخ.

وقد قالوا أنه لا يباح لبس الخرقة الملونة إلا لمن كان صاحب تلوين؛ لئلا يكون تظاهر للناس بلباس ليس هو صاحب إشاراته، فيكون ادعاؤه بلسان الحال أنه صاحب تلوين زورًا ومحالاً، فإن التلوين عند سيدي محيي الدين - قدس الله سره- فوق التمكين، فأنه ترقي من مقام إلى مقام، والترقي أعلى من الوقوف، فمراد سيدي محيي الدين به تلوين التمكين، ومراد القوم التلوين الذي هو ناشئ من عدم التثبيت في حقيقة حق اليقين، فرجع الخلف إلى اللفظي كعادته بينهم، وهذا المتلون يلبسونه اللباس الملون؛ ليفصح عن حاله، ويشوقه هذا اللباس للسلوك في التحقيق بحق اليقين، والالتحاق برجاله، وإذا وقع

له الإذن بلبس الزي العباسي لبسه؛ سواء وقع له قبل لبس الثاني أو الثالث أو بعدهما، فأنه يشير إلى الجمع بين سواد القلب ونوره، فإن قلب الصارف كما قيل ووجهه أسودان في الدارين؛ أي: لثباتهما، وعدم تغيرهما، كما أن السواد ثابت على حال واحد لا يتغير، وإن صبغ بألف لون لا يظهر تلونه؛ لتمكنه في لباس سواده، والسواد ظلام، والظلام عماء، فيشير لباس السواد لمقام العماء الذي ما فوقه هواء، وما تحته هواء؛ أي: لا حق ولا خلق.

وقد قلت من قصيدة سابقا:

وفي مجلا العَماءِ ما ثم عبد ... ولي كنزٌ خفيٌّ في نفوسِ

مُقامٌ عاليٌ لم يُدرَ إلَّا ... بكشفِ مذهبِ ضوءِ الشموسِ

إذ الأوصافُ والأسماءُ غابتْ ... بمجلَى الذَّاتِ صرفًا يا سُدُوسِي(١)

ولا شيءٌ هُناكَ سِوى المُسمَّى ... غِنَى الذَّاتِ والوَهَنِ النَّمُوسِي(٢)

فتلوين التمكين محكم صاحبه فيه، فلا يظهر إلا إذا أراد إظهاره، وأما التلوين الذي قبله فإن صاحبه تحت أسر حاله فيقهره، ويظهر، ولذا كان عند القوم غير مرضي؛ لأن من لم يملك حاله لم يعد عندهم من الرجال، ولا يعدون منهم إلا من تحكم، وما حكمت عليه الأحوال.

ولما سئل الجنيد ﷺ عن لون الماء قال: لون إناء، وكذلك العارف من يتلون بلون إنائه؛ أي: زمانه؛ أي: يظهر لأهل زمانه بما يناسبهم، ويتنزل لهم فيما تصل إليه عقولهم، ويخاطبهم، وهذا تلون محمود؛ إذ هو من التمكين في المقام، وفي الجمع بين السواد والبياض، أو غيره، إشارة إلى الجمع بين الشريعة والحقيقة، فإن الشريعة ظاهرها، والحقيقة بها، وهما متلازمان، ومن أخل بأحدهما فقد أخل عن سواء الطريقة، وهذه الإشارة قريبة من إشارة السادة المولوية فإنهم يلبسون مريدهم خرقتهم المعهودة، ويصنعون له الزيق، ويلبسونه الكلاه ويسيرون به في فيافي طريقهم، حتى يقطعونه المهامة والمخاوف، ويسقونه من شراب حرقهم وتمزيقهم، ويعرفونه بعد أن يقع له التعريف برموز طريقهم، فيفهم أسرار دورانهم وسماعهم، وما يشيرون به من حركات وجدهم، والتياعهم، فإذا تحقق بسر

---

(١) شطر غير واضح.

(٢) شطر غير واضح.

الأحدية التي يشير إليها الكلاه باستقامته، فأنه كالألف، وهي تشير له، وقشعت سحب غمامته تنزل لمشهد الفرق الثاني، ومزج شراب الحقيقة الصرفة بالمشهد الفرقاني، فهناك يسدل على سر الأحدية ستر الصيانة الأبدية، ويقف عند الحدود الشرعية ولا يتخطاها، ويقتدي بإمام الأئمة المنزل عليه﴿طه﴾ [طه:١] فهذه إشارة لف شاش رتبة العبودية، على كلاه مقام الأحدية، فأنها البد اللازم ومن فارقها فرأيه غير حازم، هي أشرف الملابس وأعلاها، وأثنى الحلل الإنسانية وأعلاها، ومن العار في طريق الأخيار على من لبس خرقتهم أن يمزقها قبل أن تمزقه، ويبليها قبل أن تبليه، فإن من لم تمزقه الخرقة قبل تمزيقها، وانقطع بها عن كل قاطع قبل تخريقها وتشقيقها فهو طالب تزويق، لا طالب زيق، ومقطوع تعويق، لا قاطع طريق.

قال سيدي أبو سليمان الداراني قدس الله سره: لا ينبغي لفقير أن يزيد في نظافة ثيابه على نظافة قلبه، بل يشاكل ظاهر باطنه .

قال أحمد بن أبي الحواري: سمعت أبا سليمان يقول: ليت قلبي في القلوب مثل ثوبي في الثياب، قال أحمد: وكان توبة وسطًا، انتهى.

وقد تقدمت هذه العبارة: من قنع بظاهر اللباس كان كالطاووس، إذ أعجبته زينة ريشه، فكان بسجن الصورة محبوس، فلهذا يمشي خيلاءً وتيهًا، فإذا رأى سواد ساقه تذكر ما فاته من حظ الجنة، وما لأهلها فيها، فيصيح قلقا، ويتأوه حرقا، فيا طاووس السين كن عنقا لا يدرك معناك الغين، وقلت:

لا تحتجبْ عنْهُ بالأشكالِ والصورِ ... ولا تكُنْ قانِعًا بالرسمِ والأثرِ
وانظرْ بعينِكَ جمعًا ثُمَّ تفرقةً ... تكُنْ بصيرًا وإلَّا كنتَ ذا عورِ
واقرأ التَّكاثرَ تدرِي بعضَ ما رمزَتْ ... إليْهِ أهلُ الهوَى سِتْرًا علَى الغمرِ
وانفِ السِوَى لا تَرَى إلَّا هُوَ تشهدُهُ ... وافهمْ خطابَ كليمٍ كانَ في الشَّجَرِ
وقولَهُ لنْ تَرَانِي إنْ فهمْتَ تفُز ... بالسِّرِّ خبرًا ولبسُ الخبرِ كالخبرِ
واخلعْ ثيابَ البقاءِ وافنِ الحجابَ تكُنْ ... مبقًا بِهِ تَدْرِي ما جاء في الزُّبُرِ
وإنْ تكُنْ لسْتَ مِن أهلِ الشهودِ فلا ... تَرَى ادعاءً تُحِقُّ رؤيةُ القمرِ

وإنْ كُنتَ من رُمَّدِ العينينِ لم تَرَهُ سلِّمْ ومن ردَّ هذا كُن على حذرِ
لا تقفُ ما لم تُحِط بِهِ علمًا بِهِ أثرًا فهوَ الرَّقيبُ علَى الأسماعِ والبصرِ
وطهِّر القلبَ مِن سوءِ اعتقادِكَ في أهلِ الإلهِ لِتحظَى مِنه بالظَّفرِ
والبسْ لباسَ التُّقَى تفُز بِهِ أبدًا وعنكَ سافرْ إليْهِ تحظَى بالوَطَرِ
والحبُّ أقربُ مِن حبلِ الوريدِ لَنا إنَّ الذَّهابَ بِهِ ذا موطنِ الحضرِ
ثُمَّ الصلاةُ عَلَى المُختارِ سيِّدِنا محمدِ المُصطفَى المبعوثِ مِن مَضَرِ
والآلِ والصحبِ والأتباعِ كُلِّهُم ما دامَ ذكرُهُم في سائرِ العصرِ
وما استجدَّ المُنَى ثوبَ الهناءِ بفناءِ وما تغزَّلَ أهلُ الحبِّ بالحورِ

ومنها: أن يذكر سنده في لباس الخرقة عند إلباسها لأحد مريديه؛ لئلا يجهل المريد أباه وسنده في طريق القوم، هذا إن كان لا يعرف ذلك، هناك من لا يعرف سند الطريق وسلسلته فيقول للشيخ مثلا: قد لبست الخرقة من يد شيخي فلان بعدما صحبته، وتأدبت به، إن كان كذلك، أو ألبسها تبركًا، أو استجزته في لبسها، فأذن لي على طبق ما وقع له من شيخه المتأدب به، والمتبرك بإلباسه، والمستجيز منه؛ لأن الطريق لسان صدق، فمن تجوز في الكذب فليس من أهله؛ لكن خرقة الطريق- كما تقدم- لا تلبس إلا بعد صحبة وتأدب، وهذه هي الخرقة المقصودة في طريق القوم، ومعلوم أن من لا أب له في الطريق فهو لقيط، ومن جهل نسبه كانت عينه غير سالمة من التنقيط، وربما انتسب لغير أبيه، فيدخل في قوله ﷺ: «لعن الله من انتسب إلى غير أبيه»[1]، قال الله تعالى: ﴿ٱدْعُوهُمْ لِآبَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٥].

ولنذكر سلسلة الطريق هنا تبركًا، وليقف عليها المريد الذي لم يرها، فيستغنى بذلك الشيخ عن ذكرها حال الإلباس له، فنقول: لقن رب العزة جبريل عليه السلام، وهو لقن النبي ﷺ، وهو لقن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه، وهو لقن ابنيه الحسن والحسين، والحسن

(١) رواه بنحوه ابن ماجه (٨/ ١٤٦).

البصري، وكميل بن زياد رضي الله عنهم، والحسن البصري لقن حبيب العجمي، وهو لقن داود بن نصير الطائي، وهو لقن معروف بن فيروز الكرخي، وهو لقن السري ابن المغلس السقطي، وهو لقن الجنيد بن محمد سيد الطائفة البغدادي، وهو لقن ممشاد الدينوري، وهو لقن محمد الدينوري، وهو لقن محمد البكري، وهو لقن وجيه الدين القاضي، وهو لقن عمر البكري، وهو لقن ابن النجيب السهروردي، وهو لقن قطب الدين الأبهري، وهو لقن ركن الدين محمد النجاشي، وهو لقن شهاب الدين محمد الشيرازي، وهو لقن سيد جمال الدين التبريزي، وهو لقن إبراهيم الزاهد الكيلاني، وهو لقن أخي محمد الخلوتي، وهو لقن بير عمر الخلوتي، وهو لقن أخي محمد ميرام الخلوتي، وهو لقن الحاجي عز الدين، وهو لقن بير صدر الدين الخياوي، وهو لقن سيدي يحيى جلال الدين بن السيد بهاء الدين الشيرواني، ويقال الباكوني، وهو لقن بير محمد الأزرنجاني، وهو لقن جلبي سلطان الأقسدائي الشهير بجمال الخلوتي، وهو لقن محيي الدين التوقادي وهو لقن الشيخ شعبان القسطموني، وهو لقن محيي الدين القسطموني، وهو لقن سيدي عمر الفؤادي، وهو لقن وأرشد الشيخ إسماعيل الجورومي المدفون عندنا في ديار الشام بالقرب من مرقد سيدي بلال الحبشي ﷺ، وهو لقن وأرشد الشيخ علي أفندي قره باش، وتخلف عن ولده للشيخ مصطفى الطيبي، أي: هو الذي أجازه بلا رشاد، ومناقبه مدونة، وهو لقن وأرشد الشيخ مصطفى أفندي الأدرَنوي القاطن الآن فيها، وهو لقن وأرشد شيخنا الشيخ اللطيف الخلوتي الطريقة الحلبي الحنفي قدس الله سره، وهو لقن وأرشد العبد الفقير مصطفى بن كمال الدين الصديقي، غفر الله لنا آمين.

وأما ما ذكره بعض العلماء من إنكار اجتماع الحسن البصري بالإمام علي ﷺ، فضلاً عن أخذه عنه، فقد قال الشعراني في «مدارج السالكين» بعدما ذكره: وهذا القول من هذا العالم لا يقدح في طريق العارفين؛ لأن هذا القابل لم يدخل طريقهم، فلو دخلها سلم للأشياخ واعتقد فيهم أنها صادقون، فإن ذلك كالمتواتر فيما بينهم من أنه لابد لكل من حق له قدم الولاية من الاجتماع برسول الله ﷺ يقظة ومشافهة، فإن لم يصح من طريق الوسائط صح من طريق الأخذ عنه بالفهم، والله تعالى لا يؤاخذ هذا العالم بما قال، انتهى.

ومنها: إنها إذا تفتقت ضروبها أن ينزعها، ويجد له أخرى، اللهم إلا أن يكون متجردًا، لا يجد ما يجُد به، ولا عند شيخه ما يعطيه، ولا في إخوانه من يوجد عنده ذلك، فيباح له لبسها إلى ميسرة، فإن بتمزقها تتغير بعض ضروبها، وتختلط وتفوت بعض إشاراتها، وبعد جعلها كسوة، وتعظيمها، لا ينبغي له أن يديرها ويجعلها المنامة، ويدخل بها الأماكن المستقذرة، فيكون قد سعى في إهانة من عظمه الله، وهذا ليس من شأن الحكيم فإنه الذي ينزل الأشياء منازلها، خصوصا إذا كانت الخرقة قد أعطاها الشيخ له، فلا ينبغي له إهانتها بوجه ولو تمزقت كل ممزق، بل يضعها ويراعي حرمتها، ولا يبع ما أعطاه الشيخ لأحد، فأنه ربما قد يكون طوي له فيه سرًا يعينه على قطع المفاوز في الدارين، «كما طوي رسول الله ﷺ لأبي هريرة ثوبًا وضمه إليه، فما نسي بعد ذلك شيئًا قط»[1]، وأفعال الشيوخ لا تكون إلا بحق عن حق لا عبثًا.

قال سيدي عبد الوهاب الشعراني قدس الله سره في كتابه «مدارج السالكين»:

ومنها؛ أي: ومن آداب المريد مع شيخه ألا يهب لشيخه شيئًا قط للتداوي، ولا يلبس له ثوبًا، ولا يجلس له على سجادة، وإذا وهبه شيخه عمامة، أو جبة أو قميصًا، أو رداء، فيظهر توقير ذلك الثوب، وليجتهد في نفسه أن يكون على أخلاق الشيخ من الكرم، والحياء، والدين، والنظافة الباطنة والظاهرة؛ لئلا يسيء الأدب مع ذلك الشيخ، الذي كان ملبوس شيخه، وينبغي إذا أراد معصية أن ينزعه عنه، وكذلك لا يمشي قط بنعل أعطاه له شيخه إلى مواطن الفرج، وأهواء النفس، فضلاً عن المعاصي، هكذا أدرج عليه الأشياخ رضي الله عنهم، وقد وهب بعض الأشياخ لمريده رداءً، فرأى الفقير ذلك المريد قد بسط الرداء على رجليه، فقال: لا يا ولدي، احفظ الأدب مع أثر الشيخ وعظمه. ثم أنشد يقول:

مـــا حرَّمَـــةُ الـــشيخُ إلّا حرَّمَـــةُ اللهُ	فقُـــمْ بِهـــا أدبًـــا بِـــالله بـــالله
هُـــمِ الْأَوداءُ والقُرَبَـــى تؤيِّـــدُهُم	عَـــلَى الدَّلالَـــةِ تأييـــدًا مِـــن الله
الوارثـــونَ هُـــمُ لِلرُسْـــلِ أجمعُهُـــم	فَـــما حـــديثُهم إلّا عَـــن الله
كالأنبيـــاءِ تَـــرَاهُم في مَحـــارِبِهِم	لا يـــسئلونَ مِـــن الله سِـــوَى الله

(١) رواه هناد في الزهد (٧٦٠) بتحقيقنا، وأبو نعيم في الدلائل (٣١٨).

فــإنْ بَــدَا مِــنهُم حــالٌ تــوهِمُهُمُ عَــن الــشريعةِ فــاترُكْهُم مَــعَ الله
لا تتَّــبِعْهُمُ ولا تــسلُكْ لهُــم أثــرًا فــإنَّهُم طلقــاءُ الله فِي الله
لا تقتــدِي بالَّــذِي زالــتْ شريعَتَــهُ عنْــه ولَــو جــاءَ بالأنْبــاءِ عَــنِ الله

قال: قلت: وقد رآني شيخنا ﷺ يوما وضعت رداء على رجلي، فقال: يا أخي الزم الأدب مع من خالطته من ناطق أو صامت، فإن الله ما جعل الرداء للرجلين، إنما جعله للكتفين.

ووقع لي مرة إنني نسيت أنني أمشي في حارته بنعلي، فخلعت نعلي ومشيت إليه حافيًا، فأعجبه ذلك مني، وقال لمن كان جالسًا عنده بخفض صوت: إذا كان ذلك أدبه مع مخلوق فكيف يكون أدبه مع الله تعالى، فسررت بذلك ﷺ فاعلم ذلك، انتهى.

ومنها: أنه لا يظن في نفسه الاستغناء عن مجالس الشيخ ببارقة برقت له، أو لائحة لاحت له، فقد جاء في الحديث: «ما صبَّ في صدري شيء إلا وصببته في صدر أبي بكر»[1] ومع ذلك لم يستغن عن الاستفادة منه ﷺ طرفة عين، فكيف بمن لم يذق إلا لعقة أو لعقتين، فأنه ليس كل من لبس الخرقة فقد كمل، بل ولا كل من تصدر للإرشاد، فإن مقام المشيخة ليس هو الغاية، فإن الشيوخ فيهم العالي والأعلى، والداني والأدنى، وكلهم طالبون من الحق سبحانه ما ليس عندهم، فثبت فقرهم وجهلهم، فكيف بمن دونهم، فلا ينقطع عن مجالس شيخه إلا كل محروم، ولو بلغ الغاية القصوى في العلوم والفهوم، قال الله تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف:٧٦]، وقال لنبيه: ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه:١١٤]، فما دام المريد طالبا فهو في ازدياد، ومتى وقف عند فتح أو كشف فقد انقطع، فينبغي للمريد دوام الاستمداد من شيخه حضرًا أو سفرًا، حيًّا أو ميتًا، فإن المريد يتحقق أن المدد هو الله تعالى، لكن بواسطة شيخه الذي جعله الله تعالى سببًا لوصول الخير إليه على يديه، فهذا المريد لا ينقطع إمداده، فإنه لا يستمد إلا من الله، فإذا تمسك بطريق واحد حصل جميع مطالبه في ذلك الطريق، فإن من أخذ عن ألف شيخ مثلا لا يستمد إلا من ربه بواسطتهم، ومن أخذ عن واحد فكذلك، فكان الأولى الثبات على طريق واحد وشيخ واحد؛ لأن المدد واحد سواء كان الشيخ حيًّا أو ميتًا، فإن مدد الحق غير منقطع على

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (٢/ ٤١٩).

الدوام فمن اعتقد انقطاع المدد انقطع عنه الإمداد، اللهم ألا أن يكون قد أخذ عن الثاني تبركًا، أو رأى النقص في حاله، وعدم الفتح له في طريقه، فقصد شيخا أخر لذلك، ولكن لا بد لذلك من سبب، وهو المانع له من الفتح، إما سوء اعتقاد، أو عدم صحة الرابطة بينه وبين شيخه الأول، أو لعدم الصدق والوفاء.

والحاصل أن حضور مجلس الشيخ الخاص فيه للمريد إطلاق من قيد نفسه، وخلاص فإنه فيه بحكم شيخه لا بحكم نفسه.

وقد قال الشيخ الأكبر - قدس الله سره - في «الحل المربوط فيما يجب على سالك طريق أهل الله من الشروط»: وللشيخ ثلاث مجالس: مجلس للعامة، وجلس للخاصة، ومجلس خاص لكل مريد على انفراده، فأما مجلس العامة فيجب ألا يترك احد من المريدين يحضر في ذلك المجلس، فمتى تركهم فقد أساء في حقهم.

وشرطه في مجالس العامة: ألا يخرج عن نتائج المعاملات من الأحوال والكرامات، وما كان عليه رجال الله في المحافظات على آداب الشريعة، واحترامهم إياها.

وشرطه في مجلس الخاصة: ألا يخرج عن نتائج الأذكار، والخلوات، والرياضيات، وإيضاح السبل المضافة إلى الآية ﴿لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

وشرطه في مجلس الانفراد مع الواحد مع أصحابه: زجره، وتفزيعه، وتوبيخه، وإن الذي يأتي به المريد حال ناقص وضيع، وينبهه على رداءة همته ونقصها، لا يفتنه بحاله، انتهى.

ومن آداب المريد في إلباسه الظاهر على ما ذكره الشعراني ﷺ: أن يكون قميصه قصيرًا نظيفًا واسع الأكمام، وأن يكون طرحًا أو مصبوغا كله، ولا يلبس الأبيض إلا يوم الجمعة فقط؛ لأن المريد واجب عليه التجريد، وترك الدنيا بحذافيرها، والأبيض يحتاج إلى غسله بالصابون ونحوه، ويحوجه إلى ثمنه، فيحتاج إلى الكسب، والحرفة وسؤال الناس، فينقطع توجهه إلى الله تعالى، ويتوجه إلى الدنيا، وكل شيء يهواه المريد يقطعه عن الله عز وجل، فليصبر على وسخ الثياب حتى يزول وسخ قلبه، فإذا زال وكمل حاله طولب بنظافة الثياب الظاهرة؛ ليشاكل ذلك باطنه، ويعمل بالعدل في ذلك، ومتى اشتغل المريد بنظافة ظاهره، ولبس الأصواف والجوخ والمظرزات لا يفلح، ولو كان شيخه من أكبر السالكين، فاعلم ذلك.

فينبغي للمريد أن يجمع أهواء الدنيا بحذافيرها، فيجعلها عقدة واحدة ويطرحها في بحر الإياس، فإن كان ولابد له من ملابس الدنيا فليلبس الوسط، لا رقيقا يصف البشرة، ولا غليظًا كالخيش.

وكذلك لا ينبغي للمريد أن يلبس الثياب التي فيها خطوط حمراء وخضراء، كالتي يلبسونها أهل الرعونة والفسق، عملاً بعرف الفقراء في ذلك، فإن المريد كلما تلبس بصفات القوم كلما قرب من أحوالهم، حتى أن المريد الصادق يسرق جميع أحوالهم في مدة يسيرة، وكان السلف يستحبون أن يكون قميص أحدهم ذا جيب، ويكرهون السراويل الواسعة الفنان، وأن يجعل علمًا على ثوب من غير تخرق، إلا أن يكون على سبيل التبرك بصاحب ذلك اللون، كالأحمدية، والرفاعية، والقادرية.

وقد رأيت في بعض الكتب أن أصل هذه الخرق «**أن رسول الله ﷺ أخرج له جبريل عليه السلام صندوقا ففتحه فإذا فيه خرق حمر وخضر وسود، فقال: ما هذا يا جبريل؟ فقال: هذه خرق ستكون لخواص أمتك**»[1] ورأيت هذا الحديث متصل السند من صاحب الكتاب إلى رسول الله ﷺ، ثم قال: ورواه البزار أيضًا بإسناد لا بأس به، والله أعلم، انتهى.

وقال سيدي محيي الدين قدس الله سره في «الحل المربوط»: وأما مذهبهم في لباسهم فهم على مذهب خاصة التمكين.

ومنهم من يلبس لوقته وهو دون ذلك، فإن الكامل من يكون الوقت بحكمه، ودونه من يكون بحكم الوقت، فالذي يلبس لآخرته، وهو الإمام المقدم ما ستر عورته، ووقاه من الحر والبرد، مما لا قيمة له ولا ثمن، وذلك من أجل الموطن، والذي يلبس للوقت هو المتجرد، الذي لا يبيع ولا يشتري، وإنما هو مشغول بحاله، غير ملتفت للدنيا والآخرة، إلا أن الأدب معه باق في احترامه، موافق للشرع وحدوده، فإنه لا يتعداها، ولكنه انقص مرتبة من الأول، وعلامة صدقه في حاله ما ذكرناه في حفظ الشرع، وإن عري فلا يلتفت، ولا يدخل في نفسه أمرًا زائدًا بغلو الثوب وحسنه، وحقارته، وما سوى هذين الشخصين فهو صاحب هوى في المباحات، فمنهم من يفرط فيه الهوى حتى يلبس المحرمات،

---

(١) ذكره الشيخ علي البدري في «آداب عمومية لكل طريق» (ص١١٨) ضمن رسائل في لبس الخرقة، وانظر: كشف الخفا للعجلوني (٢/ ١٣٧).

ومنهم من لا يفرط فيه الهوى ذلك الإفراط، فيلبس المكروه، ومنهم من هو دون ذلك، فيلبس المباح الحسن، والتفصيل في هذا الباب يطول، هذه الرسالة تضيق عنه، انتهى.

وقد تعترى اللباس الظاهر الأحكام الخمس، وسيأتي نقلها عن القوافي.

ومن أدبه: ألا يدخل على شيخه إلا باللباس الذي يدخل به إلى الصلاة، فإن الصلاة حضرة الله، وحضرة الشيخ حضرته أيضا، ولا يمكن الدخول في الصلاة إلا بلباس يستر العورة، ولو كان ثوبًا واحدًا، فإن الثوب الواحد يجوز إذا لم يجد المصلي غيره، وإن وجد فالأفضل في حقه لبس الأكثر من واحد؛ لأن لبس الاثنين أستر للعورة من الواحد.

وقد اختلف الفقهاء فيما إذا لم يجد المصلي إلا ثوبًا متنجسًا، هل يصلي فيه أو يصلي مكشوف العورة؟ فمنهم من قال: يصلي جالسا بدونه، ويومئ، ومنهم من قال: بل يصلي به ويعيد، ومنهم من قال: لا إعادة عليه؛ لأنها هكذا وجبت... إلى غير ذلك.

وقال سيدي محيي الدين ﷺ في «فتوحاته»: اتفق العلماء على أنه يجزي الرجل من اللباس في الصلاة الثوب الواحد لاعتبار؛ أي: اعتبار إشارة اللباس الواحد باطنًا، الموحد في الصلاة هو الذي لا يرى نفسه فيها، بل يرى أن الحق يقيمه ويقعده، وهو كالميت بين يدي الغاسل، فهذا هو معنى الثوب الواحد.

فصل في الرجل يصلى مكشوف الظهر والبطن

ذهب قوم إلى جواز صلاته، وذهب قوم إلى أنه لا تجوز صلاته، لاعتبار الظاهر والباطن، وهو عمل القلب في الصلاة، وعمل الجوارح، فالرجل المصلي إذا انكشف له ظاهر أمره في صلاته وباطنه، لم ير نفسه مصليًا، وإنما يرى نفسه يصلي بها، فهذا بمنزلة من قال بإبطال صلاته، فإن صاحب هذا الكشف على هذا النظر يطلب إضافة الصلاة إليه مع وقوع الصلاة منه، ومن حصل له هذا الكشف، وقال: لا يمكن أن يكون الأمر إلا هكذا، أو بهذا القدر من الفعل، يسمى مصليًا، قال بجواز صلاته.

فصل فيما يجزئ المرأة من اللباس في الصلاة

اتفق الجمهور على الدرع والخمار، فإن صلت مكشوفة، فمن قائل: تعيد في الوقت وبعده، ومن قائل: تعيد في الوقت، وأما المرأة المملوكة، فمن قائل: أنها تصلي مكشوفة

الرأس والقدمين، ومن قائل: بوجوب تغطية رأسها، ومن قائل باستحباب تغطية رأسها؛ لاعتبار ذلك في النفس، لا فرق بين المملوكة والحرة، فإن الكل ملك لله، فلا حرية عن الله، فإذا أضيفت الحرية إلى الخلق فهو خروجهم عن رق الغير لا عن رق الحق؛ أي: ليس لمخلوق على قلوبهم سبيل، ولا حكم، فهذا معنى الحرية في الطريق، وقد تقدم الكلام في الثوب الواحد وبقي الاعتبار في تغطية الرأس هنا.

فاعلم أن المرأة لما كانت في الاعتبار هي النفس، والرأس من الرئاسة، والنفس تحب الظهور في العالم برئاستها؛ لحجابها عن رئاسة سيدها عليها، وطلب شغوفها على أمثالها، ولهذا قيل: آخر ما يخرج من قلوب الصديقين حب الرئاسة، أمرت النفس أن تغطي رأسها؛ أي: تستر رئاستها، فإنها في الصلاة بين يدي ربها، ولا شك أن الرئيس بين يدي الملك في محل الافتقار، فإذا خرج إلى من هو دونه أظهر رئاسته عليه، فلهذا أمرت النفس المملوكة أن تغطي رأسها في الصلاة

فصل في لباس المحرم في الصلاة

لمن هو قائل بجواز صلاته، وهو مذهبنا،وإن كنت أكره ذلك، ومن قائل: لا يجوز، ومن قائل: باستحباب الإعادة في الوقت، وهو عندنا عاص بلباس ما لا يحل له، وإن جازت صلاته فإنه عندنا من الذين﴿خَلَطُواْ عَمَلاً صَٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا﴾ [التوبة:١٠٢] لاعتبار ذلك النفس ما في كل موطن يرزق الإنسان العصمة في أحواله، والتوفيق في جميع أموره، فهو فيما يوافق فيه موفق، وفيما يخذل فيه مخذول في الوقت، كالذاكر لله بقلبه ولسانه، وهو يضرب بيده في تلك الحالة من يأثم بضربه، ومن حرم عليه ضربه فلا يقدح ذلك في ذكره، كما لا يرفع ذلك الذكر آثمه، أو حكم أنه أتى حراما، فأنه الذكر لا يحلله، ولهذا عندنا تصح الصلاة في الدار المغصوبة، فهو مأثوم من وجه، مأجور من وجه، انتهى.

ومن آدابه: التقلل من الدنيا، زهدًا فيها، ورغبةً في العقبى، فقد كان عيسى عليه السلام يقول للحواريين: بحق أقول لكم أن لبس المسوح الخشنة، وأكل الشعير غير منخول، والنوم على المزابل، كثير على من يموت.

ومن كلام الإمام عمر بن الخطاب رضي الله عنه :« اخشوشنوا، فإن النعم لا تدوم»[1].

---

(١) ذكره العجلوني في «كشف الخفاء» (١ / ٦٨).

وقد خطب الإمام عمر ﷺ يومًا وعليه قميصان، فقال: **أنصتوا حتى أقول لكم، فقال سليمان الفارسي: كلا، والله لا نصغي لقولك، فقال عمر: لماذا؟ فقال: عليك قميصان، وعلى كل واحد منا قميص واحد، فصاح عمر ﷺ بأعلى صوته على المنبر: يا عبد الله يا عبد الله ـ لولده ـ فقال: نعم، فقال: أناشدك بالله تعالى، أما تعلم أن القميص الذي علي لك، فقال: اللهم نعم، فقال له سليمان: قل، الآن نسمع لك»**[1]، انتهى.

فعلم أن من جملة آداب اللباس: الزهد في فضله.

ومن كلام الشيخ علي الكازواني ﷺ: من زهد في فضول الثياب كان من الأحباب، وكان يقول: فسق العارف في نهايته أن يتوسع وينعم نفسه بالمباح فوق كفايته.

وقال بعضهم: رأيت كأن القيامة قد قامت، فيقال: أدخلوا مالك بن دينار، ومحمد ابن واسع الجنة، فنظرت أيهما يتقدم، فتقدم محمد بن واسع، فسألت عن سبب تقدمه فقيل لي: أنه كان له قميص واحد، ولمالك قميصان.

ومن آدابه: أن يقول عند لبسه كل ثوب جديد: اللهم كسوتني هذا الثوب، فلك الحمد، أسألك خيره وخير ما صنع له، وأعوذ بك من شره ومن شر ما صنع له، وليبدأ بالميامن، فإن من السنة البداية باليمين.

قال الشعراني في «العهود الصغرى»: أخذ علينا العهود ألا نتهاون بلبس ثياب الزينة عند كل مسجد.

قال شيخنا ﷺ: والناس في الزينة على ثلاثة أقسام: زينة لله، وزينة للشيطان، وزينة للدنيا.

فزينة الله: هو كل محمود، وشملته النية الصالحة.

وزينة الشيطان: هو كل منصرم لم تشمله نية صالحة.

وزينة الدنيا: هي ذات وجهين: وجه إلى الإباحة والندب، ووجه إلى الكراهة والتحريم.

---

(١) ذكره المتقي الهندي في «الكنز» (١٥/ ٥٩٣)، بنحوه.

فمن لبس ثياب الزينة وهو غافل فذلك مباح، أو لإظهار النعمة فهو مندوب، أو التشبيه بأهل الدنيا فهو مكروه، أو فخرًا أو خيلاء فهو حرام، فاعطي يا أخي كل زينة إلى صاحبها، ولا تخلط، فإن الزينة قد جاءت مبهمة في القرآن في مواضع، وفي مواضع معينة مضافة، قال الله تعالى: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾ [فاطر:٨]، وقال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ زَيَّنَّا لِكُلِّ أُمَّةٍ عَمَلَهُمْ﴾ [الأنعام:١٨]، ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [النحل:٦٣]، والله أعلم انتهى.

وقال اللقاني في «شرح الجوهرة»: وذكرها في القوافي في اللباس؛ أي: الأحكام الخمسة، وهي: الوجوب، والندوب، والحرمة، والكراهة، والإباحة، ولا خصوص له؛ أي: للباس بها؛ أي: بهذه الخمسة، بل يدخل فيها المراكب، والخيل، والدور، والخدم، والأسرة، قال: أي: القوافي، فيكون؛ أي: اللباس واجبًا في حق ولاة الأمور وغيرهم إذا توقف عليه تنفيذ الواجب، فإن الهيئة المذرية بولاة الأمور لا تصلح معها مصالح العامة اليوم؛ لما جبلت عليه النفوس في العصور المتأخرة من التعظيم بالصور، وعكس ما كان عليه السلف الصالح من التعظيم بالدين والتقوى. وقد يكون مندوبًا في الصلوات، والجماعات، والحروب؛ لرهبه العدو، والمرأة لزوجها، وفي العلماء؛ لتعظيم العلم في نفوس الناس. وقد قال عمر ﷺ: «أحب إلي أن أنظر القارئ أبيض الثياب»[1]، وقد يكون حرامًا إذا كان وسيلة لمحرم؛ كمن يتزين للأجنبيات لتوقع الفجور بهن، وقد يكون مكروهًا إذا كان للتطاول على أمثاله، وقد يكون مباحًا إذا خلا عن تلك الأسباب، ولم يقصد به إظهار النعمة انتهى.

والذي ينبغي لكل مريد صادق أن يسعى في طيب مطعمه وملبسه، وهو أن يتخذهما من الحلال، ولا يطلق نظره في شهوات النفوس من الملابس الفاخرة، والمآكل، فإن هذه حالة من ليس له في الطريق قدم.

وأما الصادق فلباسه ما ستر عورته، ومأكله ما سد جوعته، ومن أراد أن يكون ميزانه راجح، فليقتد بالسلف الصالح.

---

(١) ذكره المتقي الهندي في «كنز العمال» (٢/ ٣١٥).

وقد ذكرنا هذه النبذة في أدب اللباس؛ لئلا تخلوا هذه الرسالة عن آداب اللباس الظاهر، ولتكون للمريد الواقف عليها بلغة كافية، وهدية شافعة، والله المرجو أن ينفع بها من طالعها من الإخوان، وأن يجعلها خالصة لوجهه الكريم، أنه المالك الرءوف الحنَّان المنَّان.

وصلى الله على سيدنا محمد ﷺ وعلى آله وصحبه والتابعين لهم بإحسان إلى يوم الدين.

وكان الفراغ من نسخ هذه الرسالة المباركة نهار الإثنين لخمسة خلت من أول شهر رجب الفرد سنة ١١٥١ ألف ومائة وواحد وخمسين على يد خويدم المصنف سلامة، غفر الله له، ولولديه، ولمشايخه، ولإخوانه، ولمحبيه ولجميع المسلمين، وبحمد لله رب العالمين، آمين.

الوصية الجلية
للسالكين طريقة الخلوتية

تصنيف
قطب الدين الأستاذ سيدي مصطفى بن كمال الدين البكري

تحقيق
الشيخ أحمد فريد المزيدي

الناشر
دار الحقيقة
للبحث العلمي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي نعمه لا تحصى، وآلاؤه الجميلة لا تستقصى، وصلى الله على سيدنا محمد الذي أسرى به ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى، نبي بأنوار طلعته بارق الدين الحنيفي حصحصا(١)، وعلى آله الطاهرين، وأزواجه المبرَّآت نصَّ على فضلهن الحق في كتابه نصًّا، وعلى أصحابه الذين اهتدوا بأنوار شريعته واتبعوه، ونالوا القرب بمتابعته، وكل منهم بجمال الثناء على ذاته اختص.

وسلم تسليمًا كثيرًا وبعد.

فيقول العبد الفقير، والعاجز الحقير، تراب الأقدام، وخادم الخدام مصطفى بن كمال الدين بن علي، الصديقي نسبًا، الخلوتي طريقةً، الحنفي مذهبًا: لما منَّ الله سبحانه وتعالى بزيارتي للبيت المقدس الأقدس، والمنـزل السامي الأنفس، ثم منَّ عليَّ بزيارتي لكليمه موسى ﷺ، وخليله إبراهيم ﷺ، وأولاده الكرام، وبقية الأنبياء الأعلام، ثم بزيارتي للأنبياء الذين في جبال نابلس حين ذهابي إلى زيارة سيدي الشيخ علي بن خليل العمري -قدس الله سره- ثم بعد ذلك قضى بتوجهي إلى نحو أراضي دمشق الشام المحفوفة باللطف والإنعام، وكانت مدة إقامتي في بيت المقدس ستة أشهر وبعض أيام، وذلك لأني خرجت من الشام في تاسع محرم الحرام سنة اثنتين وعشرين ومائة وألف، ودخلت بيت المقدس في التاسع والعشرين من محرم الحرام، وعزمنا على التوجه في أوائل شعبان المبارك من السنة المذكورة، وكان قد اتصل بطريقتنا الطريقة الخلوتية جماعةٌ، فلمّا أردنا التوجه قصدنا أن نتحفهم بوصيةٍ مختصرةٍ جامعةٍ لأغلب أركان الطريق؛ لتكون منبهةً لهم فيما يحتاجونه من التخلق بأخلاق أولئك الفريق، والله أسأل أن ينفع بها من طالعها، وعمل بما فيها من الإخوان، وأن يجعلها سببًا لجلبهم إلى نيل مقامات الإحسان، إنه سبحانه على كل شيء قدير، وبعباده خبير بصير.

وسميتها: «**الوصية الجلية للسالكين طريقة الخلوتية**». فأقول ومنه سبحانه ارتجي نيل القبول:

---

(١) في نسخة (حصى).

اعلموا إخواني -وفقني الله وإياكم في السلوك طريق المقربين الأخيار، وعصمنا من الزيغ عن الشريعة المحمدية، والاغترار- أن طريق السادة العارفين من أهل الحق والطريق المبين -رضي الله تعالى عنهم أجمعين- طريق غيب غير محسوس ولا مشهود، وسلوكه بالقلوب؛ لأنه من الغيوب، فيجب على المريدين التصديق بآثاره، والإذعان لسطعات أنواره مع الجِدِّ والاجتهاد، والتوجه الكلي والاستعداد؛ لأن سلوكه يصعب على النفوس؛ لكونه علم ذوق لا يسطر في الطروس، فمثال السالك فيه كمثال السائر في طريق الحج، فإن مَن أراد السير في طريق الحج لابد له من ترك مألوفاته، وهنا كذلك.

ثم يترك الأهل والأوطان رغبةً في رضاء الملك الدَّيان، وكذلك هنا لابد له ألا يلتفت إلى أهل ولا أوطان ولا أصحاب ولا خلان، بل لابد له من زاد وهو هنا التقوى لقوله عز من قائل: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ﴾ [البقرة:١٩٧].

ولابد له من سلاح ليضرب به عدوه، وهو هنا الذكر.

ولا بد له من مركوب حتى يهون عليه الطريق، وهنا المقصود منه الهمة؛ لأن بها يرتقي المريد إلى أعلى المقامات.

ولابد له من دليل يسير أمامه، وهو هنا الأستاذ المربي، فإن مَن سلك الطريق بغير دليل تاه وضل، وربما هلك مع الهالكين.

ولقد أشرت إلى ذلك بقولي سابقًا في الرسالة التي سميتها «النصيحة السنية في معرفة آداب كسوة الخلوتية»:

إن لم يكـن تـشهد لحـي سـعاد ... لا تنـزلن منـازل الآسـاد

أو إن تكـن سـكران مـن خمـر السوى ... إيـاك أن تـدنو لأرض الـوادي

فلـئن دنـوت أصـبت مـن آسـادها ... وطـردت عـن ذاك المقـام النـادي

فـإذا أردت فخـذ إمامـك سـيدًا ... يحميـك مـن طـرد ومـن إبعـاد

مـن بعـد سر بفنـاء ظـل ركابـه ... واعـرف لـه حـق المقـام البـادي

إيـاك أن ترقـى بـلا درج فـإن ... تـصعد هلكـت ولم تنـل المـراد

أو أن تــسير بغــير معرفــة بــأر	ض الفــوز عنــد ذوي المكــان الــشادي
هــذي عــروس أيــن مــن تجــلى لــه	هــذي المليحــة ايــن مــن يــك صــادي
إيــاك دعــوى الوصــل قبــل وصــولها	فــإذا فعلــت فــضحت في الإشــهاد
فــالزم إلى حــي الــسكوت مــيممًا	أرض الخفــاء ومــنزل الأفــراد

ولابد له من رفقة يستأنس بهم في طريقه، يساعدونه في سحقه وتمزيقه، والمقصود منهم إخوانه الذين هم طالبون مطلبه.

ثم إنه إذا سار وأراد أن يشعل مصباح الحكمة في بيت قلبه المظلم من آثار السوى والعمل بالحظ والهوى ليرى ما فيه من الرذائل فيطهره منها ويخرج بكليته عنها فلابد له من سبعة أشياء؛ لأن مَن أراد أن يوقد مصباحًا لابد له منها، وهي: الزناد، والحجر، والحراق، والكبريت، والمسرجة، والفتيلة، والدهن.

فمن طلب أن يوقد مصباح الحكمة فلابد له من زناد الجهد، قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾ [العنكبوت:٦٩].

ولابد له أيضًا من حجر التضرع، قال تعالى: ﴿ٱدۡعُواْ رَبَّكُمۡ تَضَرُّعٗا وَخُفۡيَةً﴾ [الأعراف:٥٥].

ولابد له من حراق، وهو احتراق النفس بالمخالفة، قال تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ﴾ [النازعات:٤١].

ولابد له من كبريت الإنابة، قال تعالى: ﴿وَأَنِيبُوٓاْ إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَأَسۡلِمُواْ لَهُۥ﴾ [الزمر:٥٤].

ولابد له من مسرجة الصبر، قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦].

ولابد له من فتيلة الشكر، قال تعالى:﴿وَٱشۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ إِن كُنتُمۡ إِيَّاهُ تَعۡبُدُونَ﴾ [النحل:١١٤].

ولابد له من دهن الرضاء بالقضاء قال تعالى: ﴿وَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ﴾ [الطور:٤٩].

فإذا تخلق المريد بهذه الأوصاف السبعة فحينئذٍ يمكنه أن يشعل مصباح الحكمة في قلبه، وهذه أول كرامة يكرم الله تعالى بها المريد أن يوقد في قلبه مصباحًا ملكوتيًا حتى أنه بعد ذلك إذا دست عليه النفس دسيسة يطلعه الله عليها لوجود ذلك النور المقذوف في القلب، فتقل عليه الدسائس النفسانية، وإنما قلنا: تقل؛ لأنها ربما دست دسيسة قبيحة، وزينت للمريد أنها جميلة، فإذا نبهه الله تعالى عليها نجا منها وإلا وقع فيها، وأيضًا فقد شبهوا القلب ببيت فيه خمس كوات يدخل منها الهواء إذا فُتحت، وإذا غلقت امتنع دخول الريح إلى ذلك البيت، فعند غلقها يقوى نور ذلك المصباح، ويشرق البيت به، وإذا فتحت تلك الكوات أو أحدها ضعف إشراق ذلك المصباح، وربما طفيء.

فالمقصود من الكوات الخمس: الحواس الخمس، فإذا شغل المريد الحواس الخمس اشتغل القلب لاشتغالها، وكذا لبعضها، واذا منعها من الاشتغال بغير الحق تعالي اشتغل القلب بمراقبة جلال الحق، وعظمته وكبريائه التي هي كناية عن المصباح.

ومعلوم أن هذه المراقبة هي التي يهدي بها أهل الطريق، ويحصل لهم بها كمال التوجيه، فإذا غفل المريد عنها فكأنه أطفأ ذلك المصباح.

فينبغي لسالكين طريق القوم -رضي الله تعالي عنهم وأرضاهم- أن يفرغوا قلوبهم من كل علة عن كل مبعد من حضرات القرب؛ لأن في ذلك حياة القلوب، وفيه استمطار ماء الغيوب، والمدد الإلهي لا يقع إلا في قلوب فارغة متعطشة إلي ذلك غالبًا، فليجتهد المريدون لنيل هذه الإمدادات الإلهية في التخلية لينالوا بعدها التحلية، فإن من لم يتخل لايتحلى.

ثم مما يجب على الإخوان -وفقهم الله تعالى إلى اجتناء ثمرات العرفان- أن يعرفوا أولاً قبل كل شيء ما يجب لمولانا جل وعز، وما يجوز، وما يستحيل، وكذلك في حق الرسل- عليهم الصلاة والسلام- ثم يعرف المريد ما يحتاج إليه من باب الطهارة، والصلاة، والصيام، والزكاة إن وجد عنده النصاب، والحج إن وجب عليه ذلك بقدر الضرورة.

ولا يشتغل في القدر الزائد على ذلك إلا بعد الكمال، فإن أهل الطريق يجب عليهم ألا يخطوا خطوة ينكرها الشرع عليهم، فإن كل مَن خالف الشريعة المحمديه تاه وضل عن

الطريقة المرضية، فالشريعة أصل، والحقيقة فرعها، فكل مَن لم يحكم الأصل لا ينتفع بالفرع، ولهذا كان سيد رؤساء هذه الطائفة أبو سليمان الداراني -قدس الله سرَّه- يقول: ما حرموا الوصول إلا بتضييعهم الأصول.

فشريعة بلا حقيقة عاطلة، وحقيقة بلا شريعة باطلة، ولهذا قال الشيخ محيي الدين -قدس الله سرَّه-:

لا تقتدي بالذي زالت شريعته عنه ولو جاء بالأنبا عن الله

ومما يجب عليهم القيام بأوراد الطريق جميعها من غير إخلال بشيء منها، وأن يوبخوا نفوسهم إذا تخلفوا عن مجلس ذكر أو وعظ وغير ذلك، فيقول المتخلف في حضرة إخوانه: يا فرحكم، حضرتم المجلس، ويا شقاوتي، الذي فاتني ذلك، وليحذر المتخلف أن يعتاد ذلك، فيوقعه في الكسل، ويحرم بركة الاجتماع مع إخوانه في الذكر والأوراد، فإن الذاكر جالس في حضرة الله تعالى، وإذا دخل المريد وحده إلى تلك الحضرة ربما حصل له في تلك الحضرة هيبة تمنعه من الاستغراق والتمادي في تلك الحضرة، وإذا كان مع إخوانه لا يحصل له شيء من ذلك.

وأيضًا فإنه إذا كان مع إخوانه حكم لنفسه بنيل الخير، وحصول الرحمة، وأما إذا كان وحده، فإنه لا يحكم لنفسه بذلك لما يعلم هو من أحوال نفسه، ولعدم رؤية نفسه أنه أهلاً للرحمة، والذاكرون لله هم القوم لا يشقى جليسهم، فإذا جلس معهم من يرى نفسه أنه ليس أهلاً للرحمة الخاصة تحقق بمجالسته لإخوانه حصول الرحمة العامة له بهم.

وأيضًا فإن المؤمنين كالبنيان يشد بعضه بعضًا، فإذا تخلف واحد من الإخوان وتمادي علي ذلك وكان ذلك لغير عذر ضروري ربما تبعه في ذلك آخر، والآخر آخر فتتبعه جميع إخوانه، فيكون هو الذي يتحمل وزر هذه السيئة، وتكتب في صحيفته، وكان سيدي إبراهيم الدسوقي - قدس الله سره- يقول: ما قطع مريد ورده يومًا إلا قطع الله عنه الإمداد في ذلك اليوم، فإن طريق القوم طريق تحقيق، وتصديق، وجهد، وعمل، وتنزه، وغض بصر، وطهارة يد وفرج ولسان، فمن خالف شيئًا من أفعالها رفضته كرهًا.

وكان يقول ﷺ: قوت المريد الصادق في بدايته الجوع، ومطره الدموع، وفطره الرجوع، يصوم حتى يرق، ويلين قلبه، وتدخل الرقة في قلبه، وأما من شبع ونام ولغا في

الكلام، وترخص، وقال: ليس على فاعل ذلك ملام فلا يجيء منه شيء، والسلام.

ومن أوصافهم: ألا يقول أحد منهم مالي، ولا متاعي، ولا كتابي، ولا ثوبي؛ لأن العبد لا ملك له مع سيده، فلا يمنع أحدًا من إخوانه كتابه ولا ثوابه ولا حاجة من حوائجه إذا كان أحد إخوانه محتاجًا إليها، لأن الإخوان جميع مالهم مشترك بين إخوانهم ليس لأحدهم ملك حاجة دون الآخر، وليس لهم أن يمتحنوا بعضهم بعضًا بطلب شيء لا تسمح به النفوس عادة إلا عند الاضطرار الكلي، وإذا طلب أحد من أخيه حاجة أن يكون طلبه برفق ولين، ويكون عطاء المسئول أيضًا ببشاشة وفرح، ويرى أن الفضل للآخذ.

ومما يجب عليهم التخلق بالأخلاق الكريمة، وتجنب الأوصاف الذميمة؛ لأن التصوف هو الصفاء والوفاء، والتخلق بأخلاق المصطفى، ولقد ذكرت في الرسالة المتقدم ذكرها، تفسير أبي العباس المرسي الصوفي فسبكت ذلك في أبيات وهي هذه:

الصاد في الصوفي صدق مع صفا	والصبر في السراء والضراء
والواو وجد ثم ود صافي	ووفاؤه جهرًا بغير خفاء
والفاء فقد ثم فقر دائم	وفناؤه عنه لنيل مناء
والياء نسبة لحضرة ربه	فاعمل بذا إن رمت للعلياء

ولا يكفي المريد التعلق بل لابد له من التخلق، وهما يثمران التحقق، ومما يجب عليهم القيام بشروطه الثمانية قيامًا كليًا، وقد ضبطتها نظمًا فقلت:

شروط طريقنا المرضي عدت	ثمانية فلازم من حواها
ولازم وردها وانهض بعزم	لترقى في مراقي من عناها
وتصبح واحدًا في الناس فردًا	خليلاً من سنى باهي سناها
فعل صمت وجوع ثم سهر	بليل الوصل كي تجنى جناحها
دوام طهارة ودوام ذكر	ونفي خواطر فارق ذراها

وربــط مــن مريــد قلــب وجــد بقلــب الــشيخ فاحرزهــا انتباهــا

وقال ﷺ:

صــمت وجــوع ســهر ثــم اعتــزال دوامــك تطهــير فــانهض للكــمال
دوام ذكــــر نفــــي كــــل خــــاطر ويــــربط قلــــب بــــأم ذي منــــال
هــــذي الــــثمان شــــروط قــــارعها فإنهــــا أركــــان ســــير للوصــــال

الأول: الصمت، وعلى المبتدئ أن يصمت بلسانه عن لغو الحديث، وبقلبه عن جميع الخواطر في شيء من الأشياء، فإن مَن صمت لسانه وقلبه انكشفت له الأسرار، وجلبت عليه المعارف الأبكار، فإذا صمت المريد بقلبه ولسانه انتقل إلى مقام المحادثة السرية؛ لأن صمت الإنسان في نفسه لا يمكن أصلاً، وهذا الصمت يورث معرفة الحق سبحانه وتعالى، ولقد قلت فيه:

انظــر أخــي لمــا في الــصمت مــن حكــم واعمــل بــه كــي تنــل قربًــا وإحــسانًا
واصمت بقلبك عن كـل الوجـود وقـم في وصــــفه يــــا فتــــى سرًّا وإعلانًــــا
فــذاك نــور بــه تهــدى القلــوب إلى حظــائر القــدس تحققــًا وإيقانًــا

الثاني: الجوع، وهو اضطراري واختياري، وجوع أهل الطريق اختياري لا اضطراري، ولو لم يكن كذلك لما كان فيه مزيد فائدة، ولذا قال بعضهم: لو يباع الجوع في السوق للزم المريدين ألا يشتروا غيره، ولكن بشرط ألا يضر بنيته، وقد ورد في حديث مرسل: **«إن الشيطان ليجري من ابن آدم مجرى الدم، فضيقوا مجاريه بالجوع والعطش، وهو يورث معرفة الشيطان»**[1].

الثالث: السهر، وهو على قسمين:

سهر العين لتعمير الوقت، ولدوام الترقي في المنازل العلية؛ لأن بنوم العين يبطل عمل القلب، ففائدة السهر دوام عمل القلب.

وأما سهر القلب فهو من نوم تيقظه الغفلة، والبعد إلى منازل المشاهدة والقرب.

---

(١) رواه البخاري (٢/ ٧١٧)، ومسلم (٤/ ١٧١٢).

والسهر ينشأ عن فراغ المعدة من فضلات الطعام والشراب، وهو يورث معرفة النفس.

الرابع: الاعتزال، وهو الانفراد والانقطاع عن الخلق إيثارًا لصحبة المولى سبحانه وتعالى، ويكون بالأجسام وهذا حال المريدين، وبالقلوب وهذا مقام العارفين، وهو لا يكفي عن اشتراط الصمت؛ لأنه إن حصل به الصمت باللسان فقد لا يحصل به الصمت بالقلب، فمن داوم عليه وقف على أسرار الوحدانية، وهو يورث معرفة الدنيا.

الخامس: دوام الطهارة ظاهرًا وباطنًا؛ لأن طهارة الظاهر تؤثر في الباطن، ولما قد ورد في الحديث القدسي: «**يا موسى، إذا أصابتك مصيبة وأنت على غير وضوء فلا تلومن إلا نفسك**»[1].

ولقوله عليه الصلاة والسلام: «**دم على الطهارة يوسع عليك الرزق**»[2].

والحديث محتمل للرزق الظاهر والباطن، وهي تورث معرفة تطهير القلب وتزكيته.

السادس: مداومة الذكر بالاسم الذي يلقن الشيخ المريد به، فإن المريض إذا استعمل الدواء المناسب لمرضه ومزاجه أثر معه ذلك بقدرة الله في الحال، والشيخ لا يلقن المريد إلا ما يناسب حاله، فلا ينبغ للمريد أن يستعمل إلا ذاك؛ لأنه أنفع للقلب من ذكر المحبوب، وهو يورث معرفة المذكور.

السابع: نفي الخواطر عن القلب لئلا يشتغل بها عن استحضار معاني الذكر، والحضور والخشوع فيه، وبنفيها يحصل خلوص القلب من الأكدار، وتظهر فيه لمحات الأنوار، وهو يورث معرفة تخليص التوحيد من الشرك الخفي.

الثامن: ربط قلب المريد بالأستاذ، ومعناه أن يداوم المريد على مشاهدة صورة الشيخ، وهذا آكد الشروط عند القوم، وهو يورث معرفة الترقي من مقامٍ إلى آخر.

ومن أوصافهم إذا اجتمعوا في حلقة ذكر أن تتوافق أصواتهم؛ لأن ذلك أبلغ في التأثير، وإذا خالف أحدهم ينبغي أن يرجع إلى موافقتهم، فإن لم يرجع يكون أساء مع

(١) رواه البيهقي في الشعب (٢٦٦٣).
(٢) ذكره المناوي في الفيض (٤/ ٢٧٣).

إخوانه؛ لأنهم لا يحصل لهم الحظ التام إلا إذا توافق منهم الأصوات، وكانت مسألتهم واحدة، وأن يتضاموا لئلا يدخل الشيطان بينهم، وألا يخلو بأدب من آداب الذكر، وهي عشرون أدبًا، خمسة سابقة على الذكر، وإثنى عشر في حالة الذكر، وثلاثة بعده.

فأما الخمسة التي قبله:

فأولها: التوبة، وحقيقتها عند القوم: ترك ما لا يعني قولاً وفعلاً، وإرادة، ومعنى ذلك كل شيء لايرقي المريد في طريقه فليتـركه.

ثانيها: الغسل للذكر أو الوضوء.

ثالثها: السكون والسكوت ليحصل له بذلك الصدق وجمعية القلب على الحق سبحانه وتعالى، ثم بعد ذلك يشغل قلبه في الذكر، ثم يتبع اللسان القلب.

رابعها: أن يستمد بقلبه عند شروعه في الذكر همة شيخه.

خامسها: أن يرى أن استمداده من شيخه هو استمداده حقيقة من النبي ﷺ لأنه الواسطة بينه وبينه.

وأما الاثنى عشر التي في حالة الذكر:

فالأول: جلوسه في مكان طاهر.

الثاني: أن يضع راحتيه على ركبتيه.

الثالث: تطييب مجلس الذكر بالرائحة الطيبة، وكذلك ثيابه.

الرابع: لبس اللباس الطيب الحلال، ولو شراميط الكيمان.

الخامس: اختيار المكان المظلم إن وجد.

السادس: تغميض العينين لكي تنسد طرق الحواس الظاهرة، وبسدها تنفتح حواس القلب.

السابع: أن يخيل شخص شيخه بين عينيه، وهذا آكد الآداب.

الثامن: الصدق في الذكر حتى يستوي عنده السر والعلانية.

التاسع: الإخلاص فيه، وهو تصفية العمل من كل شوب.

العاشر: أن يختار من صيغ الذكر (لا إله إلا الله) فإن لها عند العارفين تأثير لايوجد في غيرها من الأذكار.

الحادي عشر: استحضار معنى الذكر بقلبه على اختلاف درجات المشاهدة في الذاكرين، ويجب على المريد أن يعرض على شيخه كل شيء ترقى إليه من الأذواق ليعلمه كيفية الأدب فيه.

الثاني عشر: نفي كل موجود حال الذكر في القلب سوى الله سبحانه وتعالى؛ فإن الله غيور أن يرى في قلب عبده المؤمن غيره، ولولا أن الشيخ له مدخل في التربية والترقي ما شرطوا على المريد تخيله في قلبه، وإنما نفوا على القلب كل ما سوى الله ليتمكن لهم تأثير (لا إله إلا الله) بالقلب، ويسري إلى جميع الأعضاء كما أنشدوا في ذلك:

أتـاني هواهـا قبـل أن أعـرف الهـوى فـصـادف قلبـاً خاليـاً فتمكنـا

وأجمعوا على أنه ينبغي للمريد إذا ذكر الله أن يهتزَّ من فوق رأسه إلى أصابع قدميه، وهي حالة يستدل بها على أنه صاحب همة فيرجى له الفتح عن قرب.

وأما الثلاثة التي عقب الذكر:

فأولها: أن يسكن إذا سكت ويخشع ويحضر مع قلبه مترقبًا لوارد الذكر فلعله يرد عليه وارد فيعمر وجوده في لمحة أكثر مما تعمره المجاهدة والرياضة في أكثر من ثلاثين سنة، وذلك أنه إذا كان الوارد وارد زهد فيجب عليه التمهل فيه حتى يتمكن فيه الزهد ويصير يتنغص إذا فتح عليه بشيء من الدنيا عكس ما كان عليه في الأول، وإن كان وارد صبر على تحمل الأذى مثلاً فيجب عليه التمهل فيه حتى يستحكم، ويصير إذا قام الوجود كله عليه بالأذى لا تتحرك منه شعرة كما لا يتحرك الجبل من نفخة ناموسة وهكذا بخلاف ما إذا لم يترقب حصول شيء من ذلك، فإن لا يحصل له تحقق بذلك المقام الذي أتى به الوارد قال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ فما لم يكن عند الذاكر اشتياق وطلب لشيء لا يعطاه.

ثانيها: أن يزم نفسه مرارًا من ثلاثة أنفاس إلى سبعة إلى أكثر من ذلك بحسب قوة

عزمه، وهذا كالمجمع على وجوبه عند القوم، فإنه أسرع في تنوير البصيرة، وكشف الحجب، وقطع خواطر النفس والشيطان.

ثالثها: منع شرب الماء عقب الذكر، فإن الذكر يورث حرقة وهيجانًا وشوقًا إلى المذكور الذي هو المطلوب الأعظم من الذكر، وشرب الماء يطفيء تلك الحرارة.

فليحرص الذاكر على هذه الثلاثة آداب فإن نتيجة الذكر إنما تظهر منها.

ذكر هذه الآداب الشيخ الشعراني في «**النفحات القدسية في بيان قواعد الصوفية**» وقال فيها: «ولقد رأيت مرة سيدي الشيخ محمد الشناوي ﷺ في المنام بعد موته، فقال لي: أدب أصحابك حتى يثمر فيهم الذكر، فإن الذاكر إذا لم يكن معه أدب فهو كذكر الشيطان لله عز وجل سواء، والشيطان لا ترقٍ له بذلك لأنه ممن سبق له الشقاء».

فينبغي لمن أراد أن تظهر له ثمرة ذكره أن يقوم بهذه الآداب جميعها، ولا يخل بشيء منها؛ فإن فائدة الذكر لا تظهر بدونها.

ومن أخلاقهم الرفق واللين وخفض الجناح لإخوانهم، وإذا أراد أحد أن ينصح أخاه فالنصيحة بلطف لقوله ﷺ: «**مَن أمر بمعروفٍ فليكن أمره بمعروف**»[1].

وليحسن خلقه في معاشرة إخوانه، وليكن هينًا لينًا لقوله ﷺ: «**والذي نفسي بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الخلق**»[2].

وكان يقول في دعائه: «**اللهم حسن خُلُقِي وخَلْقِي**»[3].

وليكونوا على بعضهم أشفق من أحدهم على نفسه، وأن يوقظوا بعضهم بعضًا في الأسحار، وأوقات الغنائم والأذكار بتلطفٍ، وأن يخصص كل منهم إخوانه بالدعاء في أوقات حصول الاستئناس والبسط لأحدهم في الخلوات؛ لأن دعاء الأخ في ظهر الغيب لا يرد، وألا يسلم كل منهم لصاحبه ما يقتضيه الطريق إلا إذا كان الفاعل لذلك الشيء

---

(١) رواه الديلمي (٣/ ٥٨٥)، والبيهقي في الشعب (٦/ ٩٩).

(٢) ذكره العراقي في تخريج أحاديث الإحياء(٥/ ٢٨١)، وقال: أخرجه الترمذي الحكيم في نوادر الأصول بإسناد فيه ضعف.

(٣) ذكره العجلوني في كشف الخفا (١/ ٢١٧).

أعلى من المعترض فينبغي له أن يستفهم عن ذلك من الأعلى، ويسلم له فعله إذا جاء بحجة موافقة للطريق، وأن كلاً منهم يقدم مصالح إخوانه على مصالح نفسه، ويرى الفضل لأخيه حيث إنه تسبب له في نيل الثواب باستقصائه لحاجته، قال ﷺ: «**إن الله في عون العبد ما دام العبد في عون أخيه**»[1].

وإذا غاب أحد عن الأوراد فليسألوا عنه، فإن غاب لحاجة دعوا له بقضائها، وإذا كان مريضًا عادوه، وإن احتاج أحد منهم للخدمة جلس عنده للخدمة وطلبوا له من الله الشفاء عقب التهجد وفواتح الأوراد، ويكونون كلهم كجسد واحد.

ومن أوصافهم: إذا وجدوا في باطنهم ضيقًا فإن يكن الذي أصابه ذلك عند الشيخ أخبره به وإلا فيتوجه بكليته إلى أستاذه ويسأله رفع ذلك عنه، وإن حرم أحدهم اللذة في مناجاته وطاعاته فليبادر بالتوجه والاستغفار؛ فإن ذلك من عقوبة ذنب صدر منه، وليحذر المريد من تغيير باطن الشيخ عليه؛ فإن ذلك يؤثر في المريد ولو بعد وفاة الشيخ، وقد قال بعضهم: لن يصيب المريد آفة من الآفات ما دام باطن الشيخ متوجهًا إليه، فإذا طرقته آفة فليبادر إلى شيخه ويسأله المسامحة إن يكن الشيخ عنده، وإلا فليتوجه بقلبه إلى الشيخ ويسأله الصفح عنه، ولهذا قال سيدي أبو العباس المرسي -قدس الله سرَّه-: كل مريد خاف من الخلق مع وجود أستاذه فهو كاذب في إرادته، وفي استناده إلى شيخه، فإن المريد مع شيخه كولد اللبؤة في حجرها، أفتراها تاركة ولدها لمن يريد اغتياله؟ لا والله.

ومن خلقهم: الذل والانكسار مع الصغار والكبار؛ لقوله عليه الصلاة والسلام: «**من تواضع لله رفعه الله، ومن تكبر على الله وضعه الله**»[2].

وقد قال السيد الجليل الإمام عبد القادر الجيلاني -قدس الله سرَّه-: ما وصلت إلى الله بقيام ليلٍ ولا صيام نهارٍ ولكن وصلت إلى الله بالكرم والتواضع وسلامة الصدر.

وألا يكون عندهم حقد ولا حسد ولا مشاحنة ولا استهزاء بأحدٍ من المخلوقين، وأن يبادروا بالأعمال الصالحة، ولا يهملوا وقت عبادة إلى غيره فما فات لا يعاد، وإلى ذلك

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٢٠٧٤)

(٢) رواه ابن أبي شيبة (٧/ ١٢٠)

أشرت بقولي:

قم وبادر ودع جميع المعاصي	وتخلق بالصدق والإخلاص
ثم إياك عل فهي خليلي	علة للردى تجر النواصي
ثم خف في المعادي من عدل عدل	عالم ثم للذنوب فحاصي
وتجرد فكم ترى يا مغني	عن حمى ذا الإله باللهو قاصي
لا تعرج على السوي ودع الميـ	ـل لقول الوشاة في الأشخاص
ثم قم في الدجى ناجي بذل	سيدي من سواك حسن خلاصي

وقد قيل: الوقت سيف إن لم تقطعه قطعك، والنفس إن لم تشغلها بالحق شغلتك بالباطل.

ومن شأنهم: دوام المجاهدة، وترك الشهوات، فمن وافق شهوته عدم صفوته.

وإنهم لا يبالون بكلام العذال من أهل الجدال، وممن لم يسلك الطريق، ولا ذاق حلاوة التمزيق والجمع والتفريق.

ومن أخلاقهم: الإقبال على الأستاذ بالكلية لكي يقبل هو عليهم كذلك، وهذا من باب العدل، وفي المحبة أن يحبوه أكثر من مالهم وأهلهم وولدهم ونفوسهم والخلق أجمعين بعد محبة الله ورسوله، وذلك للأشياخ ﷺ بالإرث لأن الخير كله عند الأشياخ ﷺ لأنهم هم الأبواب، ولقد قلت في ذلك:

الخير في باب الشيوخ فلذ بهم	كيما يزول عن العيون غشاها
وأقم على أعتابهم بتذلل	يزول عن عين الفؤاد غطاها
قوم لهم رتب المعالي منزل	ونزيلهم يرقى إلى أعلاها
والقلب قربًا ينجلي بسنائهم	والروح فيهم تحتظي بمناها
يا طالبًا في غير سلمى مطلبًا	دع عنك يا جاني شهود سواها

واطلب بصدقك شربة تزل الظما وهي الشفا أواه ما أحلاها

ومما يجب عليهم: عدم تتبع عورات الخلق، وإذا ظهرت من أحدهم هفوة ستروها أو زلة تجاوزوا عنها، وإذا كشف لأحدهم عن عورات الناس سأل الله أن يستر عنه ذلك؛ لأن ذلك كشف شيطاني لا يعبأ به، وفي حديث الطبراني مرفوعًا: «من تتبع عورات الناس تتبع الله عورته، ومن تتبع عورته فضحه ولو في جوف رحله»[1].

وكان الحسن البصري ﷺ يقول: والله لقد أدركنا أقوامًا لا عيوب لهم فتتبعوا عورات الناس فأحدث الله لهم عيوبًا.

وكان سيدي أحمد الزاهد يقول: إذا رأيتم أحدًا من إخوانكم على معصية فاستروه، فإن تجاهر بها فوبخوه بينكم وبينه، فإن لم ينزجر فوبخوه بين الناس مصلحة له لعله يرعوي وينزجر، وما دام يعصي في قعر داره ولو بحضرة أطفال داره فهو لم يتجاهر إلا إذا كانت الأطفال من أهل العبارة فإنهم كالرجال.

وقد أنشد بعضهم في ذلك:

قبيح على الإنسان ينسى عيوبه ويذكر عيبًا في أخيه قد اختفى

فلو كان ذا عقل لما غاب غيره وفيه عيوب لو رآها بها اكتفى

ومن شأنهم: أن ينفقوا على إخوانهم وعلى نفوسهم كل ما فتح الله به عليهم أولاً فأولاً، ولو كان شيئًا زهيدًا، ولا يعودون نفوسهم الاختصاص بشيء عن إخوانهم أبدًا، فإن من آثر نفسه على إخوانه في الشهوات لا يفلح ولا يرتقي المقامات، ومن شأن المتقدم عليهم في البدء والختام ألا يعجل عليهم في الختم على الخصوص إذا رأى الذكر قد احتبك، والأصوات قد توافقت والأشواق قد تحركت فليصبر على إخوانه حتى يعلم أنهم قد أخذوا بعض حظهم من الذكر وبعد ذلك يختم، وأيضًا فينبغي له ألا يشدد عليهم إذا رآهم قد ملوا وغلبهم النعاس أو فيهم ذو حاجة فالرفق بالإخوان محمود، وينبغي لهم أن كل من تقدم عليهم يقدمونه ولا يتنافسون، فيقفون عن السير.

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٢٧٢).

وهذه من وصية سيدي أحمد الرفاعي ﷺ لأصحابه، وينبغي لهم ألا يتقدموا في بدء الفواتح وختمها على من قدموه أولاً، وأن يوافقوه في ذكره ولا يخالفوه وليحذر المتقدم من رؤية نفسه على إخوانه في تقديمهم له وإياه وحب الرئاسة؛ فإنها سيف قاطع يقطع ظهور المريدين الذين ليسوا بصادقين، فإن الرياسة لا تحل في قلب أحد إلا هلك.

ومن الواجب عليهم: عدم الإنكار على أحد من الخلق إلا أن يكون فعله يناقض الشريعة مع ثبوت عقله، وأما مَن زال عقله بعارض كوني أو تجلٍ إلهي فلا يعترض عليه، فإنه مسلوب الاختيار، وإذا لقي أحد منهم أخاه أن يتصافحا ويسلم كل منهما على أخيه، ويسأله الدعاء في ظهر الغيب عند المفارقة، وإذا سأل أحد منهم عن حال أخيه أثنى عليه غاية الثناء لما يعتقده من أخيه في علو المقام، ولا يوافق من يحط على أحد من إخوانه ولو كان ذلك أيضًا من إخوانه بل ينهاه على ذلك، ويحذره من مثل هذا، فإذا انتهى وإلا هجره لينتهي، وإذا نقل له أحد أن بعض إخوانه قذفه أو سبه فليقل للناقل: يا هذا، أنا لا أصدق في أخي ما تقول لما أعلم من وده، وإذا وقع من أخي ذلك فلغلبة نار نفسه عليه، وليس ذلك باختياره، وأنا أشهدك أني سامحته، فبهذا لا يقع التنافر بين الإخوان.

ومن أوصافهم: ترك المجادلة والمباحثة والمماراة فإن طريق القوم بعيد عن ذلك، وينبغي إذا سأل أحدهم عن مسألة أن يدفع السائل إلى الشيخ، فإن لم يكن فإلى أحد إخوانه، فإن لم يكن منهم أحد ولا كان في ذلك المكان من يدفعه إليه فحينئذٍ يجيبه المريد مع رؤية نفسه أنه ليس أهلاً لذلك، فإن كل من فتح على نفسه من المريدين باب المجادلة فقد فتح على نفسه باب الرئاسة، ومن فتح على نفسه باب الرئاسة لا يفلح أبدًا، فليجتهد المريد في شرط الصمت ما أمكن.

ومن شأنهم: التباعد عن مخالطة الأحداث ومعاشرتهم؛ فإن معاشرة مثل هؤلاء مما يوقع المريد في المهالك؛ لأن النفس أمارة بالسوء ميالة إلى المعاطب، تلقي صاحبها في المهلكات، وتحسن له فعل مثل ذلك، ويساعدها الشيطان والهوى في مرامها حتى يسقط المريد في وادي الميل إلى الأحداث أو النساء فيقع بسبب ذلك في الأمور التي لا ترضي نعوذ بالله من شرور نفوسنا الأبية، ونسأل الله تعالى المعونة على دسائسها الخفية، وقد قال القشيري ﷺ: ومن ابتلاه الله بشيء من ذلك فبإجماع الشيوخ ذلك عبد أهانه الله وخذله بل

عن مصالح نفسه شغله، ولو بألف ألف كرامة أهله.

وكان الواسطي ﷺ يقول: إذا أراد الله هوان عبد ألقاه إلى هؤلاء الأنتان والجيف، يريد بهم الشباب المرد الذين تميل إليهم النفوس، فليحذر المريد الصادق من مجالسة الأحداث إلا في حلقة الذكر أو الدرس بحضرة الشيخ مع غض البصر عنهم ما أمكن، وكذلك النساء ومؤاخاتهن والاجتماع بهن كما عليه غالب فقراء هذا الزمان، فإن ذلك لا يجوز، وأما وعظهن والنصيحة لهن فذلك جائز.

ولقد قلت:

نصحتك يا هذا فإن تك طالبًا	طريق الهدى فاعمل بكل كلامي
ويمم بصدق للطريق فإنه	به يحتظي المشتاق كل مرام
طريق به نور الولاية ساطع	رفيق بمن وافوا إليه ظوامي
وفيه فلذ إن رمت ترقى إلى العلا	وسر باجتهاد وأنف طيب منام
فإن كنت من خطابنا قم بقولنا	وإلا فسر عنا أخي بسلام

وهذا القدر كافي للإخوان الصادقين والمريدين العاشقين، فإن الذكي يفهم بالتلويح والإشارة، والغبي لا يفهم ولا بصريح العبارة، ومن عمل بالقليل جره ذلك إلى الكثير، ونسأل الله سبحانه أن يوفقنا وإخواننا وأحبابنا إلى ما يرضيه من قولٍ وعملٍ وأن يختم لنا بالحسنى عند انتهاء الأجل، وألا يجعل حظنا القول باللسان، وأن يخلقنا ويحققنا في المعارف اللدنية والأسرار الخفية في السر والإعلان إنه ولي ذلك والقادر عليه، وهو الذي جمع الخيرات طوع يديه، وصلى الله وسلم على الحبيب الأعظم والسيد الأفخم، الإمام الجليل، والحبيب النبيل، سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وشيعته ووارثيه وحزبه والتابعين لهم إلى يوم الدين، والحمد لله رب العالمين، آمين يا رب العالمين.

العهد الوثيق

في التوسل بالسادات الخلوتية أهل الطريق

لمنشئها الشيخ حسن عباس، الخلوتي طريقة، الشافعي مذهبًا، الطوخي مولدًا، المنصوري إقامةً، المتوفى يوم الخميس سنة ١٣٤٧ هـ

يا رب بالسر الخفي الساري ... فضلاً أجرنا من عذاب النار

والطف بنا في أمرنا عند القضا ... وتوفنا كرامًا مع الأبرار

يا رب بالعهد الذي أودعته ... جبريل يبلغه إلى المختار

وأمين سر الوحي بلغه كما ... عهد الإله إليه في أسرار

حقق مآربنا وتمم نصرنا ... واخذل جنود عصابة الكفار

نور بصائرنا بجاه نبينا ... طه وبدل عسرنا بيسار

ونبينا المختار بلغه لمن ... أخاه سيدنا علي الكرار

السيد الأتقى إمام العابديـ ... ـن الذاهين وقدوة الأخيار

وعلي الكرار لقن سيدي ... حسنا هو البصري ضيا الأبصار

و حبيب العجمي عنه وقد حبا ... داودًا الطائي بالأنظار

معروف الكرخي عن داود قد ... أخذ الطريق إلى السرى الساري

وعن السرى أخذ الجنيد رئيسهم ... هو سيد الصوفية الأخيار

فعن الجنيد العهد قد وافى إلى ... ممشاه دينور أبي الأسرار

ومحمد الدينور عن ممشادهم ... سلك الطريق ففاق كل مبار

ومحمد البكري اقتدى بمحمد ... وبه وجيه الدين في استبصار

ووجيه دين الله عاهد سيدي ... عمر الذي يعزى إلى ذي الغار

وأبــو النجيــب الـــسهروردي أخـــذ عهـــدًا عـــن البكـــري غـــوث الجـــار
والـــسهروردي للأبهـــري مرشـــد ومحـــد قطـــب الـــدين بـــالأنوار
ومحمـــد وهـــو النجـــاشي آخـــذ عـــن قطـــب ديـــن الله في اســـتظهار
أمـــا شـــهاب الـــدين وهـــو محمـــد شـــيراز منـــشؤه وأصـــل الـــدار
فعـــن النجـــاشي ثـــم لقـــن عهـــده لجـــمال ديـــن الله في التـــسيار
ينمـــى لتبريـــز التـــي هـــي أرضـــه وبـــه لإبـــراهيم عهـــد جـــار
الزاهـــد الكـــيلاني وهـــو ملقـــن لمحمـــد ليـــث الطريـــق الـــضار
الخلـــوتي ولـــه طريقتنـــا عـــزوا نـــسبًا ولقنهـــا إلى الأطهـــار
عمـــر الـــذي قـــد نـــال عنـــه عهودهـــا وبـــه إلى مـــبرام نـــور ســـار
و الحـــاج عـــز الـــدين عـــن مـــبرام قـــد نجحـــت مقاصـــده بحـــسن جـــوار
والعـــز لقنهـــا لـــصدر الـــدين مـــن غـــرب الجزائـــر مـــن جيـــان الـــدار
والـــشيخ يحيـــى صـــاحب الـــورد اهتـــدى بمنـــار صـــدر الـــدين خـــير منـــار
و محمـــد بـــن بهـــاء ديـــن الله عـــن يحيـــى تلقـــن ورده الـــستار
جلبـــي ســـلطان أفنـــدي آخـــذ عنـــه لخـــير الـــدين عهـــد البـــار
والقـــسطموني وهـــو شـــعبان لخيـــــر الـــدين يقفـــو إثـــره ويبـــار
والقـــسطموني وهـــو محيـــي الـــدين مـــن شـــعباننا قـــد مـــد بالأصـــار
عمـــر الفـــؤاد القـــسطموني تـــابع وبـــه أخـــو جـــرم أخـــو استبـــصار
لعـــلى قـــرا باشـــا بـــه تبعيـــة ولمـــصفطى درنـــا اقتفـــا الـــسيار
ولـــسيدي عبـــد اللطيـــف بـــه ائتـــسا في عهـــده وطريقـــه ووقـــار

وأمامنا البكري المسمى مصطفى … من أنشأ الأوراد بالأسحار

عن سيدي عبد اللطيف سلوكه … شهر الطريق بسائر الأقطار

قد جد فيه مجددًا أوراده … حتى استضاء به كضوء نهار

والسيد البكري لقن قطبنا … السيد الحفني أبا الأنوار

ولسيدي الدرديري أحمد نسبة … للعارف الحفني عزيز الجار

ثم السباعي صالح عن أحمد … ومحمد نجل السباعي المار

والحاج طلخان اقتدى بمحمدٍ … والسر منه لشيخنا استئثار

عنه تلقى شيخنا الجمل الذي … عنه وصلت العهد بالأذكار

جازاهم الرحمن خير جزائه … وأمدنا معهم بحسن جوار

وأباحنا نظر الرضا في جنة … وسقى جماعتنا من الأنهار

متمتعين على الأرائك ناظريـ … ـن جنابه الأعلى مع النظار

التوسل بالجميع

منوا وجودوا أيها السادات … فبذكركم تتنزل الرحمات

منوا علينا واعطفوا يا سادتي … أنتم لطلاب الرشاد هداة

لا تمنعونا فضلكم فلكم لكم … لمن انتمي لجنابكم نفحات

ولكم دللتم حائرًا عن رشده … وعلاه منكم همة وثبات

حسن خويدمكم وفعلي سيء … وعلى فعال الشر لي وثبات

وهو المسكين الذي أثرته من … زمر الذنوب جحافل وثبات

نظرًا إلي بنظرة أحيا بها … ويكون لي برضاكم إثبات

أنتم غيات الخلق سادات الورى … وعلى انتهائي أنتم أثبات

نظـــرًا إلي المحـــسوب مـــن خـــدامكم بـــل عبـــدكم يـــا أيهـــا الـــسادات

الدعاء بهم

يا ربنا ندعوكا بخواص من عبدوكا يا ربنا نرجوكا نصرًا عزيز عاجلاً

نصرًا بلا إمهال.

يا ربنا لطفًا لطفًا إلهنا عطفًا عطفًا لبلائنا كشفًا كشفًا وارفع غلاء نازلاً

وتبدد الأوجال

يا ربنا ضاق الخناق إلهنا حل الوثاق يا ربنا كشف المشاق والرفق في هذا الغلا

وتحول الأحوال

يا من مجيب السائلا يا من يغيث الآملا الكل أقبل سائلاً، نظر الرضا كشف البلا

يدعو بذل سؤال

اخذل جنود المعتدين شتت جيوش الظالمين اقبل دعاء المسلمين يا من يغيث السائلا

بتحقق الآمال

ثم الصلاة على النبي الهاشمي اليثربي وسلام ربي الطيب ولصحبه، ولمن تلا

ولصحبه والآل

ما لاح نجم أو غرب ما انهل غيث، وانسكب ما لجّ داع في الطلب وأجابه رب العلا

وأجيب في التسال

الحمد لله الذي هدانا، وجعلنا من أتباع سيد المرسلين عليه الصلاة والسلام، ونسأله حسن الخاتمة إنه سميع.

وصلى الله وسلم على سيدنا محمدٍ ﷺ وآله وصحبه أجمعين

فهرس الموضوعات

